المقامـــات

بين بديع الزمان الهمذانى والحريرى

الأستاذ الدكتور

عبد الله حسين على سليمان

أستاذ الأدب والنقد

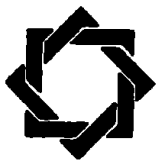

﴿ ٤٧٥ ﴾

الفصل الأول

«المقامات: معناها ونشأتها»

(١)

المقامات: معناها:

المقامات جمع مقامة وأصل المقامة فى اللغة كالمقام موضع القيام كمكانة ومكان، وقد استعملت فى المجلس استعمال الأضداد كقول المسيب بن علس:

وكالمسك تترب مقاماتهم وتترب قبورهم أطيب

وقول نهشل الدارمى:

إنا نظرنا فى المقامة مالكا نظر المسافر أين ضوء الفرقد

ثم توسع فى استعمال اللفظ فانتقل إلى الدلالة على الجماعة الجالسين المقيمين بالمكان كقول لبيد العامرى:

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام[1]

وقول زهير بن أبى سلمى:

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل[2]

---

(١) غلب الرقاب غلاظها جمع أغلب والمراد بالحصير الملك.

(٢) ديوان زهير ص ١١٣ ط دار الكتب.

وقد سبق «المجلس» «المقامة» فى هذا الاستعمال كقول مهلهل:

نبئت أن النار بعدك أو قدت واستب بعدك يا كليب المجلس

ثم أطلق المحدثون «المقامة» على حديث يقال فى مجلس واحد يستمع له، وبعدئذ قصروه على هذا الضرب المعروف من الكلام(٣) وقد سمى بها الشريف المرتضى دروسه التى كان يلقيها على تلاميذه ودونها فى أماليه فصولاً سمى كل واحد منها مجلسا... وعلى هذا الاستعمال الأخير عقد ابن قتيبة فى كتابه «عيون الأخبار» فصلاً لكلام الزهاد بين أيدى الملوك وجعل عنوانه «مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك» وأصرح منه فى الاستعمال بهذا المعنى قول بديع الزمان فى واعظ سئل عنه «رجل لا أعرفه فاصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبئ بعلامته» وقد جاء العرف الأدبى فخصها بفن من الإنشاء المنمق... يروى على لسان امرئ خيالى يحكى قصة وقعت لإنسان أو أكثر يتخيلهم الكاتب ويضع على ألسنتهم عبارات يتفصح فيها ما قدر فيلتزم فيها السجع غالباً ويزينها بما استطاع من حلى البديع ويودعها ما شاء من طرفة أدبية أو مسألة علمية أو ملحة فكاهية أو تصوير لحالة اجتماعية مع ما يتبع ذلك كله من وصف الأماكن والأشخاص والأخلاق...

والمقامات تصور حياة الأدباء السيارين الذين كانوا يسمون باسم الساسانيين نسبة إلى ساسان وهو شخص فارسى قديم يقال إن أباه حرمه من الملك فهام على وجهه محترفاً للكدية... ومن يقرأ فى «اليتيمة» يجد طائفة «الساسانيين» هذه تحتل حيزاً فى الحياة الأدبية للقرن الرابع الهجرى وهى

(٣) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى بالمشرق للسباعى بيومى ص ٢٢٧.

تشبه تمام الشبه طائفة «الأدباتية» التى اشتهرت عندنا بمصر فى القرن التاسع عشر الميلادى إذ كانوا يتخذون الأدب والشعر وما يتصل بهما من فصاحة وبلاغة وسيلة إلى كسب المال وابتزازه، ومن يرجع إلى «بخلاء» الجاحظ يجده يعرض لهذه الطائفة وحيلها،(٤) كما تحدث عنها «البيهقى» فى القرن الرابع الهجرى(٥) وإذا مضينا فى هذا القرن إلى عصر بديع الزمان وجدنا هذه الطائفة تتضح شخصيتها فى الحياة الاجتماعية والأدبية بأوسع مما كانت عليه قبل ذلك، واشتهر من شعرائها حينئذ «الأحنف العكبرى» و«أبو دلف الخزرجى».

وللباحثين المعاصرين أقوال فى معنى المقامة تكاد تكون متشابهة أو متقاربة لكنها على أى حال تقدم صورة واضحة لهذا اللون من النثر الفنى...

فبعض الباحثين يقول عنها... إنها حكايات قصيرة موضوعة على لسان رجل خيالى تنتهى بعبرة أو موعظة أو نكتة، والمراد بها فى الأكثر التفنن بالإنشاء وتضمينه الأمثال والحكم(٦).

وبعضهم يقول «المقامة حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحة(٧).

وبعضهم يقول «هى القصص القصيرة التى يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو خطرة وجدانية أو لمحة من لمحات الدعابة

---

(٤) البخلاء للجاحظ جـ ١ ص ٨٦.
(٥) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٦٢٢.
(٦) جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٣١٩.
(٧) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربى ص ٣٩٦.

والمجون[٨].

وبعضهم يقول إنها.. نوع من القصص القصيرة تخيل فيها منشئها شخصاً من المكدين أو المتسولين يطوف من مكان إلى مكان يستجدى الناس بفصاحته وبيانه[٩].

وبعضهم يقول «إنها حكايات قصيرة تدور كل منها حول حيلة يحتالها رجل لكسب شئ من المال عن طريق التكدى صيغت فى أسلوب أدبى»[١٠].

وبعضهم يقول إنها «تدور حول مغامرات شخصية معروفة ومميزة بظرفها وهى تكوين أدبى جديد ونموذج للقصة القصيرة تحتوى على مغامرات للمكدين»[١١].

وبعضهم يقول إنها «أعمال قصصية قصد بها سرد حكاية وتصوير أشخاص»[١٢].

وبعضهم يقول إنها «تمهيد للكتابة الروائية على صورة أكبر»[١٣].

والمقامة بهذا الاعتبار لها سمات وقسمات تتمثل فى الراوية والبطل والأسلوب المسجوع الموشى بالمحسنات البديعية والزخارف اللفظية والمعالجة الخاصة للمشكلات الاجتماعية والطبقية أو المسائل الفقهية واللغوية والنحوية والأدبية والموضوع المتنوع عن الكدية أو الخيال أو الوعظ أو العلم أو الجدل[١٤].

---

(٨) زكى مبارك: النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ١٩٧ وما بعدها.
(٩) شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٦.
(١٠) أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٤٢.
(١١) انظر أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية لمحمد رشدى حسن ص ٢٤.
(١٢) توفيق الحكيم: فن الأدب ص ٢٢.
(١٣) آدم ميتر: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ترجمة أبى زيدة ص ٣٤٨.
(١٤) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية ص ١٨ وما بعدها.

(٢)

نشأة المقامات:

«المقامة» بهذا التخصيص الفنى وبمعناها الأدبى المتميز لم يعرفها الأدب العربى إلا فى القرن الرابع الهجرى، وما إن ظهرت وتعرف الأدباء على خصائصها حتى تواردوا على شرعتها وتسابقوا إلى التأليف فيها على اختلاف العصور والأمصار.

ويذكر بعض الباحثين(١٥) أن أهل القرن الثالث الهجرى كانوا على ما يظهر يعرفون نوعاً من «المحاورات الأدبية» يسمى «المقامات» وهذا القول يعتمد على رسالة أنشأها «ابن المدبر» تسمى «الرسالة العذراء» يقول فيها موصياً المتأدب: وانظر فى كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب».

وابن قتيبة – فى القرن الثالث الهجرى أيضاً – يذكر فى كتابه «عيون الأخبار» مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك، وهى عشر مقامات تتناول كل مقامة حديثاً يلقى أمام الخلفاء الأمويين والعباسيين وابن قتيبة يستخدم لفظ «المقام» للدلالة على مفرد «المقامات» ولا يستخدم لفظ «مقامة» ومن أمثلتها ما قاله على لسان صالح بن عبد الجليل بين يدى المهدى «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل، وأشد منه عذاباً، من أقبل إليه العلم وأدبر عنه، ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به فقد رغب عن هدية الله وقصر بها، فاقبل ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل، لا قبول سمعة ورياء».

(١٥) زكى مبارك فى كتابه... النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى.

وليس من شك فى أن هذا النهج الذى التزم بـه ابـن قتيبـه فـى مقاماتـه الوعظية ليس فيه من مقومات المقامة المعروفة شئ فـلا راويـة ولا بطـل ولا حيلـة ولا كديـة ولا سـجع ولا زخـارف بديعيـة ولا هذه المحـاورات اللغويـة. وأقدم أثر أفلتته عوادى الزمـن تحـت عنـوان «المقامـات» هـو ذلـك المنسـوب لبديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨هـ ولم نـر نتاجاً بهذا العنـوان لأحد قبله، ولم نسمع بخبر نتـاج إلا مـا رواه الحصـرى فـى كتابـه «زهـر الآداب» ويفيد كلامه أن بديع الزمان كان مسبوقاً بفضل المحاولة الأولى بالعالم اللغوى والراوية الأديب الكاتب الشاعر محمـد بـن الحسـن بـن دريـد الأزدى المتوفـى سنة ٣٢١هـ وأن محاولتـه هـذه وإن لـم تعـرف باسـم المقامـات كـانت أساسـاً صالحاً وجه البديع إلى معارضته وتعديله فيما أخـرج للنـاس مـن هـذا الفـن... يقـول الحصـرى تحـت عنـوان «جملـة مـن كـلام أبـى الفضـل أحمـد ابن الحسين الهمذانى بديع الزمان» وهذا اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معنـاه، وكلام غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً، ولما رأى «البديع» أبا بكر محمد ابن الحسـن بـن دريـد الأزدى أغـرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها مـن ينـابيع صـدره، واستنخبها مـن معـادن فكره، وأبداها للأبصـار والبصـائر، وأهداهـا للأفكـار والضمـائر فـى معـارض أعجمية، وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تتبوعن قبوله الطبـاع، ولا ترفـع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة، وضروب متصرفة عارضها بأربعمائة مقامة فـى الكديـة تـذوب ظرفـاً وتقطـر حسناً، لا مناسـبة بيـن المقـامتين لفظـاً ولا معنـى، وعطـف مسـاجلتها، ووقـف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الإسكندري، وجعلهما يتهاديان الدر، ويتنافثان السحر، فى معان تضحـك الحزيـن، وتحـرك

الرصين، يتطلع منها كل طريفة، ويوقف منها على كل لطيفة وربما أفرد أحدهما بالحكاية وخص أحدهما بالرواية[١٦]. وظاهر كلام الحصرى يوحى بأن بديع الزمان ليس بالمبتدع للمقامة بإطارها الفنى المعروفة به، وإنما هو قد استوحاها واستلهمها من «ابن دريد»، والإنسان إذا عارض شيئاً فإنه يحاول أن يحاكيه ليأتى بمثله أو بأحسن منه إن استطاع، ولابد أن يوجد أساس تبنى عليه المعارضة أو المحاكاة.

ولعلنا نتساءل أين هذه الأحاديث التى صنعها ابن دريد ووقعت عليها المعارضة من بديع الزمان فكانت سبب اتجاهه إلى تأليف المقامات وفق رواية صاحب زهر الآداب؟؟

يرى بعض الباحثين أن ما نسب إلى ابن دريد من أحاديث قد توزعت على أشتات الكتب وجمع أكثرها فيما رواه أبو على القالى فى أماليه... وقد استندوا فى ترجيح هذا الرأى إلى أمور: سمة الإغراب وأثر الصنعة البادیان عليها مما يؤكد ما لاحظه الحصرى من أن ابن دريد أخرجها فى معارض أعجمية وألفاظ حوشية فجاء أكثر ما أظهره تتبوعن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع... فضلاً على أن أكثر هذه الأحاديث يشتمل على قصص مسجوع يدور فى جملته حول المعانى التى دارت حولها المقامات... وقد جرى أكثر هذه الأحاديث لأناس مجهولين فهم حينا من الأعراب، وطوراً من أقيال اليمن الذين لا يذكر لهم اسماً ولا تاريخاً، وتارة من النكرات التى لا يعرف لها فى التاريخ وجود وهم فى ذلك أشبه بأشخاص المقامات فى التنكير... وما ذكروه لا يمكن أن ينهض دليلاً قاطعاً على أن هذه الأحاديث

(١٦) زهر الآداب للحصرى جـ ١ ص ٢٧٣.

المبعثرة ومنها ما فى أمالى القالى هى التى أشار إليها الحصرى فى حديثه عن بديع الزمان ومعارضته لابن دريد... ولعل هذه الأحاديث المشار إليها كانت مجموعة فى كتاب ذكره المؤرخون بين مؤلفات ابن دريد لكنه ضاع ولم يبق لنا إلا اسمه وهو كتاب «رواد العرب» فإننا نكاد نرجح أن يكون موضوع هذا الكتاب هو المقصود بإشارة صاحب زهر الآداب وذلك للشبه القوى بين صنيع الرائد وارتحاله من مكان إلى مكان وصنيع البطل فى المقامات وتنقله من بلد إلى بلد ومن مقام إلى مقام والسر فى اتجاه ابن دريد إلى اختراع هذه الأحاديث يرجع إلى ما شاع فى العصر البويهى من محاولة الفرس إحياء لغتهم وتجديد مجدها بعد انتشار الإسلام وازدهار لغة القرآن وآدابها فحملوا أدباءهم على التأليف باللغة الفارسية فى تاريخهم القديم كما فعل نوح بن منصور السامانى فى اقتراحه على «الدقيقى» نظم الشاهنامة وحتى من كان يحكم هذه الأقاليم من غير الفرس كان يجاريهم فى النهوض بلغتهم تقرباً إلى شعوبه من أهلها كما فعل السلطان محمود الغزنوى التركى فى اقتراحه على «الفردوسى» إتمام »الشاهنامة» التى بدأها الدقيقى ولم يتمها... وقد عرف من تاريخ ابن دريد أنه ارتحل إلى بلاد فارس ورأس الديوان لا بنى ميكال: عبد الله بن محمود بن ميكال وولده إسماعيل، ولعله قد راعه أن يترعرع الأدب الفارسى ويشيع بين الناس فينال من ازدهار الأدب العربى والإقبال عليه فاخترع ما اخترع من أحاديث ليشغل بها الناس، وليصور الشمائل العربية كما يحب العرب أن تكون... ولعل ابن دريد كان يهدف من وراء ذلك أن يضع لتلاميذه نماذج يتعرفون بها طرائق صوغ الكلام ونظمه، وأن يدس فى أطواء تلك النماذج ما كان يتهمه العلماء بافتعاله من مفردات لتشيع بين الناس على رغم متهميه «قال الأزهرى فيه» ممن ألف الكتب فى زماننا فرمى بافتعال

العربية وتوليد الألفاظ أبو بكر بن دريد «وقال ابن خلكان فى ترجمته» سئل عنه الدار قطنى أثقة هو أم لا؟ فقال: تكلموا فيه، وقيل كان يتسامح فى الرواية فيسند إلى كل ما يخطر له(١٧).

وبعض الباحثين يرفض بحماس بالغ أن يكون هناك تشابه بين مقامات الهمذانى وأحاديث ابن دريد لا فى الموضوعات ولا فى طريقة العرض ولا فى الصياغة والبناء ولا فى الغاية والهدف، ومع استخدام السند والسجع فى المقامات والأحاديث ووصف بعض الحيوانات إلا أن هذه الأمور كانت من الأمور المتداولة المعروفة التى لا تدل على احتذاء واتباع بالإضافة إلى أن الأحاديث ليس لها بطل وإن كانت مروية وأن الموضوعات فيها تختلف من حديث لآخر(١٨). ومعنى ذلك أن بديع الزمان فى مقاماته لم يكن متأثرا - من وجهة نظرهم - بابن دريد فى أحاديثه أو بغيره وهم يؤيدون هذا الرأى بما يذكره الثعالبى فى يتيمة الدهر من أن الهمذانى حين وفد إلى «نيسابور» سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة أملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الإسكندرى فى الكدية وغيرها وضمنها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين من لفظ أنيق، قريب المأخذ بعيد المرام(١٩). فالثعالبى وإن لم يذكر صراحة أن بديع الزمان هو منشئ المقامات إلا أنه أيضاً لم يقل إن أحداً من سابقى الهمذانى قد أوحى له بمقاماته ولم يشر إلى وجود أية صلة بين هذه المقامات وأحاديث ابن دريد... وابن النديم فى الفهرست لم يشر إلى أحاديث ابن دريد مع أنه ذكر كل

(١٧) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٣٩.
(١٨) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية لمحمد رشدى حسن ص ١٠ وما بعدها ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤.
(١٩) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ١٦٨.

مؤلفاته[٢٠]... والحريري يذكر صراحة أن بديع الزمان الهمذاني هو الذي ابتدع المقامات ويقول في مقدمة مقاماته: «جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان»[٢١].

والحقيقة التي لا جدال فيها والتي نطمئن إليها غاية الاطمئنان أن بديع الزمان قد اطلع على أحاديث ابن دريد كما اطلع على ما كتبه الجاحظ عن أهل الكدية وأنه بغير شك قد تأثر بذلك في مقاماته بشكلها الفني المعروف[٢٢].

وإن ابن دريد أنشأ أحاديثه في بيئة فارسية ومعارض عجمية وأنه كان فيها أميل إلى اللغة والغريب وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه «المقامات»... وإذا كان القدماء لم يسلكوا أحاديث ابن دريد في سلك المقامات فإنني أرى أنها تعتبر خطوة في سبيل الوصول إليها، ومحاولة مهدت لأساس صالح قام عليه بناء هذا الفن، وإذا كان البديع قد تأثر بما كتبه الجاحظ عن أهل الكدية إلا أنه سلك في مقاماته مسلكاً يختلف في صياغته وبنائه الفني عما كتبه الجاحظ ومعلوم أن صياغة الجاحظ جاءت خالية من الراوية والبطل ومن أساليب السجع المعروفة التي اشتهرت بها المقامات.

ولا نكاد نعثر في أقوال القدماء على ما يدل على أنه بعد ابن دريد

---

(٢٠) الفهرست ص ٩١، ٩٢ ط الرحمانية ١٣٤٨هـ والذي جمع هذه الأحاديث هو أبو علي القالي في أماليه ضمن أحاديث البدويات عن أزواجهن (الأمالي جـ ١ ص ١٦ ط دار الكتب) أو شرح بعض الألفاظ الغريبة (جـ ١ ص ١٥٢) أو نقل بعض الحكم على لسان الخليفة (جـ ١ ص ١٩٤) أو على لسان أعرابي (جـ ١ ص ٢١٤) أو ذكر الألغاز الشعرية (جـ ٢ ص ٢٩٨).

(٢١) مقدمة مقامات الحريري.

(٢٢) انظر المقامة لشوقي ضيف ص ٢٠ ط دار المعارف.

﴿ ٤٨٥ ﴾

يوجد أحد من مؤلفى المقامات غير بديع الزمان الهمذانى... لكن بعض مؤرخى الأدب المحدثين يورد فى جملة مؤلفى المقامات العلامة اللغوى أبا الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠هـ ومن بين هؤلاء المؤرخين «جورجى زيدان» حيث يقول فى ترجمة ابن فارس: «وله فضل التقدم فى وضع المقامات لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء نسقه، وعليه اشتغل بديع الزمان»[٢٣] وقد مضى فى هذا الاتجاه السباعى بيومى حيث يقول عن ابن فارس: «فقد وضع مقامات اتبع الأدباء نسقه فيها وكان أولهم اتباعاً تلميذه البديع المتوفى سنة ٣٩٨هـ فى مقاماته التى وصفها الحصرى آنفاً وكلاهما عاش فى بيئة فارسية كما عاش ابن دريد[٢٤] ثم يقول: «ولعل من حظ البديع ضياع مقامات هذين الأستاذين وبقاء مقاماته ممثلة فى الثمن الباقى منها وهو خمسون مقامة فاعتبرت لذلك أولى المقامات»[٢٥].

وإننا لنتساءل ويحق لنا هذا التساؤل: كيف لا يذكر القدماء ابن فارس من بين الذين تأثر بهم تلميذه البديع فى إنشاء المقامات لو كان له سهم فيها مع ما هو معلوم من أن ابن فارس من أساتذة بديع الزمان الذين تلقى عنهم علوم اللغة والأدب؟؟؟

ولقد ثبت بالبحث أنه لا يوجد ما يتصل بحديث المقامات عنه إلا ما ذكره ابن خلكان فى وفيات الأعيان أثناء ترجمته له حيث يقول عنه: «له رسائل أنيقة، ومسائل فى اللغة يعايى بها الفقهاء ومنه اقتبس الحريرى صاحب المقامات ذلك الأسلوب ووضع المسائل الفقهية فى المقامة «الطيبية»...»

(٢٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ٢ ص ٣٥٧ ط ثانية دار الهلال.
(٢٤) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى بالمشرق للسباعى بيومى ص ٢٢٨.

وكلام ابن خلكان يفيد أن ابن فارس جمع طائفة من المسائل الملغزة فى الفقه واستظهر بها على الفقهاء، وأن الحريرى اقتبس منه هذا الضرب من الألغاز فأدخل فى مقاماته المعاياة بالمسائل الفقهية، ولو كانت هذه المسائل مقامات فى نظر ابن خلكان لكان أولى به أن يذكر البديع وهو تلميذ ابن فارس بالتأثر بها قبل الحريرى، ولكان كذلك صنيع الحصرى فلا يلتمس لبديع الزمان القدوة فى ابن دريد دون أستاذه ابن فارس إن صح أن له مقامات، وإذن فليس من المقطوع به ولا بين أيدينا ما يفيد أن ابن فارس يعد من رواد فن المقامات.

على أن العلامة محمد عبد المنعم خفاجى يذكر علماً آخر فى عصر ابن دريد يشبه البديع والبديع يشبهه إلى حد بعيد وهو أبو المطهر الأزدى مؤلف حكاية أبى القاسم البغدادى[٢٦] ويقرر الدكتور خفاجى انه لا يخالجه شك فى أن بديع الزمان أخذ من الأزدى وحذا حذوه مستنداً فى ذلك إلى أن الأزدى أول من أطلق كلمة مقامة على ما يحكى فى مجلس، من المجالس إذ يقول فى مقدمة رسالته «هذا الذى أحصله من أدب غيرى وأقتنيه، وأتحلى به وأدعيه وأرويه، من ملح ما تنفسوا به وتنافسوا فيه، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسى دونتها ورسائل سيرتها ومقامات حضرتها، ثم إن هذه حكاية رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستقبحة، وعبارات عن أهل بلده مستفصحة ومستفضحة، فأثبتها خاطرى لتكون كالتذكرة، فى معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم وكالأنموذج

---

(٢٥) نفسه.

(٢٦) الحياة الأدبية فى العصر العباسى لخفاجى ص ٣٨٩ وما بعدها ط أولى ١٩٥٤ العهد الجديد.

المأخوذ من عاداتهم» وهو يرى أن شخصية أبى القاسم البغدادى وشخصية أبى الفتح الإسكندرى متشابهتان حتى فى التسمية وهما خرافيتان، وكل منهما جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق، كما يرى أن حكاية أبى القاسم وصف لحياة بغداد وما فيها من خلاعة ولهو وتدوين لكثير من عادات أهلها ولمظاهر الحضارة فى عصره وكذلك فعل البديع فى مقاماته، وأسلوب البديع مشابه لأسلوب أبى المطهر الأزدى فى العذوبة والرقة والسجع والازدواج والانتقال من فن إلى فن فى دعابة وظرف وخفة روح، ثم يورد محمد عبد المنعم خفاجى نص عبارة وردت على لسان البغدادى فى وصف ثقيل يقول فيها «يا أول ليلة الغريب إذا بعد عن الحبيب، يا طلعة الرقيب، يا يوم الأربعاء فى آخر صفر، يالقاء الكابوس فى وقت السحر... الخ» ويقول البديع فى نفس المعنى «يا أم حنين، يا غداة البين، يا رمد العين، يا فراق المحبين، يا ساعة الحين، يا ثقل الدين» وهو يرى فى هذه المشابهة بين القولين أقوى دليل على ما يقول(٢٧).

والحقيقة أنه ينبغى فى مجال البحث عن الريادة الحقيقية لأدب المقامة أن نفرق بين أمرين: الأول: أصول المقامة وجذورها الثانى: المقامة باعتبارها فناً متميزاً بخصائصه الفنية وملامحه الدقيقة، فالجذور والأصول يمكن أن نلمحها فى موضوعات الكدية وحيل المكدين وحكايات البخلاء التى أثارها الجاحظ وفى الخطب والمواعظ ومقامات العباد والناسكين عند الخلفاء وأحاديث ابن دريد وحكاية أبى المطهر الأزدى وحديث ابن فارس... الخ أما المقامة باعتبارها فناً له منهجه وقواعده وأصوله فذلك مالا نعلمه لأحد قبل

(٢٧) نفسه ص ٣٩٠.

﴿ ٤٨٨ ﴾

بديع الزمان وتأسيساً على ذلك تكون الفترة التى أعقبت محاولة ابن دريد فى أحاديثه فترة خالية مما يمكن أن نطلق عليه «المقامات» بمعناها الفنى إلى أن جاء البديع فكان رائد هذا الفن وفارس تلك الحلبة، وجرى الأدباء على أثره، وكثر مؤلفو المقامات من بعده وأصبح اسم بديع الزمان ونابغة همذان يتردد على كل لسان فى كل زمان ومكان فمن هو يا ترى بديع الزمان؟ وما حقيقة مقاماته التى رفعته على عرش الإبداع والإحسان؟؟

﴿٤٨٩﴾

الفصل الثانى

«مقامات بديع الزمان»

(أ)

بديع الزمـان:

أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى المعروف باسم «بديع الزمان» عربى النسب، فارسى النشأة، ولد عام ٣٥٨ للهجرة فى «همذان» وهى مدينة جبلية فى إيران، ويتحدث بديع الزمان عن مولده وأصله ومحتده فى إحدى رسائله فيقول: «إنى عبد الشيخ، واسمى أحمد، وهمدان المولد، وتغلب المورد، ومضر المحتد» فهو إذن عربى مضرى تغلبى وليس بفارسى(٢٨).

أخذه أبوه بالتعليم والتثقيف فاختلف إلى دروس العلماء والأدباء فى بلدته، وحرص على شهود مجالسهم، وتلقن على أيديهم العلوم الدينية واللغوية والأدبية، ومناهج الفكر، وأصول المعرفة، وأهم أساتذته الذين كان لهم فضل تعليمه وصقله أبو الحسن أحمد بن فارس صاحب كتاب «المجمل». وظل بديع الزمان حريصاً على شهود مجالس العلم والمعرفة واللغة والأدب، ملازماً لصفوة العلماء والأدباء حتى أتم دروسه، وأكمل تحصيله، ونبه شأنه، وعلا قدره، وشاع ذكره، وطار صيته علماً ولغة وأدبا وشعراً ونثراً.

وكان حرصه على الرحلة والانتقال من مكان إلى مكان عاملاً من

(٢٨) المقامة لشوقى ضيف ص ١٣.

عوامل نضجه واستوائه واكتمال تجاربه وخبراته، ففى الثانية والعشرين من عمره «سنة ٣٨٠هـ» ترك همذان ضائقاً بها أو قل ساخطاً عليها فقد جاء فى إحدى رسائله إلى شيخه أحمد بن فارس قوله:

لا تلمنى على ركاكة عقلى أن تيقنت أننى همذانى

وروى له ابن خلكان بيتين لم يثبتا يقيناً يذم فيهما همذان وأهلها:

همذان لى بلد أقول بفضله لكنه من أقبح البلدان
صبيانه فى القبح مثل شيوخه وشيوخه فى العقل كالصبيان[٢٩]

وقد فارقها إلى حضرة الصاحب بن عباد زعيم أدباء عصره حينئذ فتزود من ثماره، وحسن آثاره[٣٠]. ثم ينتقل إلى «جرجان» فيقيم بها مدة مع الإسماعيلية يعيش فى أكنافهم، ويقتبس من أفكارهم ثم يرحل إلى «نيسابور» ويستقر بها سنة ٣٨٢هـ حيث نشر بزه، وأظهر طرزه، وأملى مقاماته التى نحلها أبا الفتح الإسكندرى فى الكدية وغيرها... وفى «نيسابور» وقعت المناظرة بينه وبين أبى بكر الخوارزمى كبير أدباء عصره ومعلميه فانتصر عليه وذاع صيته وطارت شهرته، وطبق الآفاق ذكره.

ويقوم البديع بجولات فى خراسان وسجستان وغزنة وما حواليها حتى «أنه لم يبق من بلدة فى هذه الأنحاء إلا دخلها وجنى ثمرتها، واستقاد خيرها وميرتها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر بنوئه، وسرى فى ضوئه، ففاز برغائب النعم وحصل على غرائب القسم، ثم ألقى عصاه بهراة، واتخذها دار قراره، واقتنى بها ضياعاً فاخرة، وعاش عيشة راضية،

(٢٩) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٩.
(٣٠) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٤ ص ٢٤١.

وحين بلغ أشده، وأربى على الأربعين ناداه الله فلباه، وفارق دنياه سنة ٣٩٨هـ[٣١].

وقد وصفه كل من أرخوا له بالذكاء الخارق، والبديهة الحاضرة والرواية الغزيرة، والعلم الواسع، والاستيعاب البارع، والاقتدار العجيب، والحافظة القوية، والذاكرة المواتية... كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها[٣٢].

وكما اشتهر بديع الزمان بحافظته القوية الأمينة اشتهر بارتجاله المتدفق السريع، وكان يعرف الفارسية ويترجم بعض أشعارها ترجمة فورية إلى العربية «يقول صاحب اليتيمة» إنه كان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع[٣٣].

يقول بديع الزمان فى حديثه عما شجر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى «فقلت يا أبا بكر: هذه اللغة التى هددتنا بها، وحدثتنا عنها، هذه كتبها وتلك مؤلفاتها، فخذ غريب المصنف إن شئت، وإصلاح المنطق إن أردت، وألفاظ ابن السكيت إن نشطت، ومجمل اللغة إن اخترت، فهو ألف ورقة، وأدب الكاتب إن أردت واقترح على أى باب شئت من هذه الكتب حتى أجعله لك نقداً وأسرده عليك سرداً».

ويقول الهمذانى متحدياً أبا بكر: «ومثال ذلك أن أقول لك اكتب كتاباً

(٣١) نفسه ص ٢٤٢.
(٣٢) نفسه ص ٢٤٠.
(٣٣) نفسه ص ٢٤١.

يقرأ منه جوابه، أو أقول لك اكتب كتاباً على المعنى الذى أقترح لك، وانظم شعراً فى المعنى الذى أقترح، وافرغ منهما فراغاً واحداً هل كنت تمد له ساعداً؟ وأقول لك اكتب كتاباً فى المعنى الذى أقول وأنص عليه، وانشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل، حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره إلى أوله وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله هل كنت تفوق لهذا الغرض سهماً؟ أو تجيل قدحاً أو تصيب نجحاً؟ أو قلت لك اكتب كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً، فإن عكست سطوره مخالفة كان جواباً» إلخ وكان جواب الخوارزمى على ذلك كله «هذه الأبواب شعبذة» ولم يستطع مجاراة البديع فى شئ من ذلك.

حقاً إنه معجزة همذان كما أطلق عليه الثعالبى... حقاً إنه بديع الزمان كما أطلق عيه معاصروه «وهذا اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، كلامه غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً...»(٣٤).

(٢)

مقامات البديع:

لقد خلف البديع للأدب ديوانين لرسائله وشعره، وقد نيفت رسائله على مائتين وثلاثين وأكثرها فى علاقاته الشخصية وبعضها فى مسائل أدبية، أما (مقاماته) التى اشتهرت به واشتهر بها فهى تلك المقامات التى تعبر عن نوع من القصص والحكايا الحوارية التى تحفل بالحركة التمثيلية وفيها تدور

(٣٤) زهر الآداب للحصرى جـ ١ ص ٢٧٣.

المحاورة بين «راوية» و«بطل» أما الراوية فقد سماه «عيسى بن هشام» وأما البطل فقد أطلق عليه «أبا الفتح الإسكندرى» وهو من الأدباء السيارين أو المكدين السائلين، يطوف من مكان إلى مكان يستجدى الناس بفصاحته وبراعته، وبيانه وبلاغته، ويتقابل هذا البطل دائماً مع الراوية عيسى بن هشام الذى يقص مواقفه، ويحكى أخباره، ويكشف عن شخصيته، وطريف حيلته...

ويصرح «بديع الزمان» نفسه أنه أملاها أربعمائة حيث يقول فى إحدى رسائله مفتخراً على «الخوارزمى»[٣٥] ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات، أو عشر مفتريات، ثم عرضها على الأسماع والضمائر، وأهداها إلى الأبصار والبصائر، فإن كانت تقبلها ولا تزجها، أو تأخذها ولا تمجها، كان يعترض علينا بالقدح، وعلى إملائنا بالجرح، بقصر سعيه، وبتداركه وهنه، فيعلم أن الذى أملى من مقامات الكدية أربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى، وهو لا يقدر منها على عشر حقيق بكشف عيوبه والسلام...» وللبديع مثل ذلك التصريح فى رسالة أخرى من ديوانه.

والحقيقة أن العدد الذى وصلنا من مقاماته يختلف باختلاف النسخ الباقية منها فهى خمسون مقامة فى النسخة التى شرحها الإمام الشيخ محمد عبده، وإحدى وخمسون فى نسخة مطبعة «الجوانب» وثلاث وخمسون فى غير هذه وتلك من النسخ.

ويرجع بعض المعاصرين من مؤرخى الأدب أن بديع الزمان كان بصدد الافتخار والتزيد فى عمله، ولذلك ينبغى أن لا نفهم العدد الذى ذكره

(٣٥) رسائل بديع الزمان ص ٣٩٠، ص ٥١٦.

بمعناه الحرفي(٣٦).

وبعضهم يرجح أن البديع لم يمل إلا أربعين مقامة ثم حرفت الكلمة إلى أربعمائة، وتتابع النساخ على هذا الخطأ... وهم يعتمدون في ترجيحهم على استبعاد أن يضيع هذا العدد العظيم منها مع شغف الناس بالمقامات، كما يعتمدون في الترجيح على ما ورد في رواية الحصري من أنه عارض بها أربعين حديثاً لابن دريد...

ونحن لا نستبعد ضياع قدر كبير من المقامات فليس ذلك بغريب في تاريخ الأدب العربي، ولطالما ورد علينا في تراجم الرجال ذكر لكتب ليس منها على قيد البقاء إلا أسماؤها مع ما يظهر في وصفها من جودتها، وعلو قدرها... ولعل بعض ما ضاع قد تم إسقاطه نتيجة رأي خاص أو عدم مصادفته هوى في نفوس الرواة والشارحين والنساخين... أما ما قيل بشأن معارضته لأحاديث ابن دريد الأربعين فإننا نرى أن المعارضة ليست تقتضي حدوداً في الكم والعدد لا تتعداها... ومن يكون يا ترى صانع البقية فوق الأربعين مما وصل إلينا من مقامات البديع؟؟!! لئن كان البديع صانعها فكيف يفتخر بأربعين مقامة فقط مع أنها بلغت في بعض النسخ ثلاثاً وخمسين.

وكل ما روى من أخبار وأقوال يؤكد أن البديع قد أملى هذه المقامات على تلاميذه إملاء... ويروى الشريشي عن بعض شيوخه أن البديع ارتجل مقاماته، وأنه كان يقول لأصحابه في آخر كل مجلس من مجالسه: اقترحوا غرضاً تبنى عليه مقامة فيقترحون ما شاءوا فيملي عليهم المقامة ارتجالا في الغرض الذي اقترحوه... وليس بالبعيد المستغرب على بديع الزمان أن يرتجل

(٣٦) الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف ص ٢٤٧.

﴿ ٤٩٥ ﴾

مقاماته فقد استقر الإجماع من أهل الرأى والبصر على وصفه بصفاء الذهن وتوقد الذكاء وحضور البديهة وقوة العارضة... وقد روى الثعالبى فى يتيمته أنه كان يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول...!![٣٧] ويتحدث البديع عن نفسه فيقول إنه يستطيع أن يكتب كتاباً يقرأ منه جوابه، أو كتاباً يقرأ من آخره إلى أوله، أو كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً فإن عكست سطورة مخالفة كان جواباً... وهكذا...[٣٨] حتى روى أن «الخوارزمى» حين سمع هذه الأصناف الجديدة فى الكتابة قال إنها «شعبذة» ومن كان فى مثل هذه المنزلة وعلى هذا المستوى لا نستبعد عليه ارتجال مقامة كل يوم يتروى فى إملائها نوعاً من التروى بمقدار ما يفرغ التلاميذ من كتابة ما أملاه. والبديع نفسه قد ذكر فى رسائله أنه أملاها، ورواية «الشريشى» السابقة تؤيد حمل الإملاء على الارتجال، ومما يؤكد ما ذهبت إليه أن فى بعض مقامات البديع قطعاً من رسائله، فجزء من المقامة «النيسابورية» ومعظم المقامة العلمية مأخوذ من رساله كتبها إلى القاسم الكرجى وكثير على من كان فى علم البديع وفنه واقتداره أن يتهيأ للتحبير فلا يجد غير اقتباسات ينقلها من رسائله...

(٣)

دواعى نشأتها:

تأثر بديع الزمان بظروف عصره، وطبيعة بيئته، وأحوال الناس فيها، ونوعية الثقافة المنتشرة فى عهده، إلى جوار ما وهبه الله من توقد ذكاء

(٣٧) يتيمة الدهر الثعالبى جـ ٤ ص ٢٤٠.

وحيوية وسعة عقل وسرعة بديهة وقوة حافظة، وأمانة ذاكرة، وجودة استيعاب، ونظرة فاحصة للحياة والأحياء، وخبرة كبيرة بطبائع البشر وأهواء النفوس كما تأثر بأحاديث ابن دريد، ونسج على منواله، واقتفى أثره، وسار على نهجه، وزاد وأوفى، وأجاد وأبدع... لكن ابن دريد ليس وحده الذى تأثر به بديع الزمان، بل إن هناك شخصية أخرى كان لها أثرها فى اتجاه البديع وأعنى بها شخصية الجاحظ فإن هناك عملاً للجاحظ أثر فيه تأثيراً بليغاً إذ تحدث فى بعض كتبه عن أهل الكدية حديثاً طويلاً وقص نوادرهم، وقد أورد البيهقى فى كتابه «المحاسن والمساوئ» فصلاً طريفاً من هذا العمل الأدبى للجاحظ[٣٩] نشعر من خلاله أن البديع اطلع على هذا العمل للجاحظ وأنه هو الذى أوحى إليه أن يدير أغلب مقاماته على «الكدية» وحكايات المكدين... ويبدأ الفصل بمحاورة بين شيخ من أهل الكدية وشاب منهم حديث العهد بالصناعة وقد سأله عن حاله فسب الكدية وصناعتها فغضب الشيخ وثار وأخذ يتحدث عن شرف صناعته وأن صاحبها فى نعيم لا ينفذ «فهو على بريد الدنيا، ومساحة الأرض وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب حيثما حل، لا يخاف البؤس، ويسير حيث شاء، يأخذ أطايب كل بلدة وهو رخى الحال، حسن البال، لا يغتم لأهل ولا مال، ولا دار ولا عقار...» ثم يقص على الشاب ما فعله وما قاله لأهل بلد من بلدان الجبل فى مسجدها الأعظم وقد ائتزر بفوطة وتعمم بحبل من ليف واتكا على عكاز ونادى فى الناس فاجتمعوا عليه فقال: «يا قوم.... رجل من أهل الشام، ثم من بلد يقال لها

---

(٣٨) رسائل بديع الزمان ص ٧٤.

(٣٩) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٦٢٢.

المصيصة من أبناء الغزاة والمرابطين فى سبيل الله. من أبناء الركاضة وحرسة الإسلام... غزوت مع والدى أربع عشرة غزوة سبعاً فى البحر، وسبعاً فى البر، وغزوت مع الأرمنى... قولوا رحم الله أبا الحسن، ومع عمر ابن عبيد الله... قولوا رحم الله أبا حفص وغزوت مع البطال بن الحسين والرزداق بن مدرك وحمدان ابن أبى قطيفة، وآخر ما غزوت مع يا زمان الخادم ودخلت قسطنطينية وصليت فى مسجد مسلمة بن عبد الملك. من سمع باسمى فقد سمع ومن لم يسمع فانا أعرفه نفسى... أنا ابن الغزيل من الركان المصيصى المعروف المشهور فى جميع الثغور والضارب بالسيف والطاعن بالرمح، سد من أسداد الإسلام، نازل الملك على باب طرسوس فقتل الذرارى وسبى النساء وأخذ لنا ابنان وحملوا إلى بلاد الروم فخرجت هارباً على وجهى ومعى كتب من التجار فقطع على وقد استجرت بالله ثم بكم، فإن رأيتم أن تردوا ركنا من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده... يقول فو الله ما أتممت الكلام حتى انهالت على الدراهم من كل جانب وانصرفت ومعى أكثر من مائة درهم فوثب إليه الشاب وقبل رأسه وقال: أنت والله معلم الخير فجزاك الله عن إخوانك خيراً ولم يتوقف الجاحظ عند هذا الحد بل أخذ يعرض فى إسهاب لحيل المكدين وأساليبهم فى الحصول على الأموال والطعام من الناس، وغير ذلك من طريف نوادرهم مما يؤكد عمق الصلة ومتانة الارتباط بين ما كتبه الجاحظ فى هذا المجال ومقامات بديع الزمان... ومعنى ذلك أن البديع قد استوحى فى عمله ما كتبه الجاحظ وقصه عن أهل الكدية، كما استوحى فى عمله أيضاً ما كتبه ابن دريد من أحاديث فهو قد اطلع على العملين غير أن ابن دريد وجهه ليكتب أحاديث تعليمية تحظى بقدر كبير من مفردات اللغة وغرائبها وشواردها وأوابدها أى أنه أثر فيه من جهة الشكل أما الجاحظ فقد

أثر فيه من جهة الموضوع إذ جعله يدير مقاماته على الكدية ويعرض أنماطاً عجيبة من حيل المكدين وأساليبهم(٤٠).

وإننا لنتساءل بعد ذلك لماذا كتب البديع مقاماته؟ وما الدافع القوى وراء عمل هذه المقامات؟

كما سبق أن بينت كانت هناك عوامل وظروف مهدت لظهور المقامات بشكلها الفنى المعروف على يد البديع، لكننا بعد دراسة مستفيضة للبيئة والظروف وأحوال العصر وما كان يشيع فيه من منافسات ومناظرات، ولطبيعة شخصية البديع وما تمتاز به من ذكاء وتوقد وحضور بديهة وطموح واقتدار على التصوير والتأثير، والتعلم والتوجيه، والتسلية والترفيه نستطيع القول بأن دواعى نشأة المقامات عند بديع الزمان تتمثل فى الإدلال بماله من قدرة على صوغ الكلام وإنشاء الأساليب والإتيان بكل غريب وعجيب والاقتدار على البديهة والارتجال وحول هذه المحاور كانت تدور مباهاة البديع ومفاخره، كما تتمثل هذه الدواعى فى إخراج نماذج فنية لطلابه وأتباعه يحتذونها وينسجون على منوالها وتكون لهم بمثابة التطبيق بعد الدرس، وهذه الغاية التعليمية هى التى يمكننا أن نفسر بها وبما سبقها من داع هذا الحشد الهائل من الألفاظ الغريبة والشوارد والأوابد التى اشتملت عليها مقامات البديع.

وهناك غاية توجيهية نبيلة وأهداف إنسانية جميلة فى مقامات البديع نلمسها فيما تعرضه من قضايا المجتمع ومشاكله وما قد يعتريه من مظاهر التناقض والاختلال، أو الفساد والانحلال، وفيما نحسه فيها من روح الفكاهة

(٤٠) المقامة لشوقى ضيف ص ٢٠.

والمرح ودواعى التسلية والترفيه، ودوافع التجرد من نزعة الشر والتحرر من ربقة الخوف والقهر والتخلص من هموم الحياة وقد استطاع البديع أن يستوعب ذلك كله فى مقاماته بكل ما أوتى من خفة روح ومرونة وفكاهة ومرح وبراعة واقتدار...

(٤)

مقامات البديع: موضوعها ودلالتها على البيئة والمجتمع:

كما قلت فإن المقامات تصور حياة الأدباء السيارين الذين كانوا يسمون «الساسانيين» نسبة إلى «ساسان» تلك الشخصية الفارسية القديمة التى كان لحرمانها من الملك وحياة الترف والنعيم أثر فى احتراف صاحبها للكدية والاستسلام لحياة التسول والاستجداء.

وقد احتلت طائفة الساسانيين حيزاً فى الحياة الأدبية للقرن الرابع الهجرى، وهى تشبه تمام الشبه طائفة «الأدباتية» التى اشتهرت بمصر فى القرن التاسع عشر الميلادى إذ كانوا يتخذون الأدب والشعر وما يتصل بهما من فصاحة وبلاغة وسيلة إلى كسب المال وابتزازه... والجاحظ يتعرض لهذه الطائفة وحيلها فى كتابه «البخلاء»[٤١] كما تحدث عنها «البيهقى» فى كتابه «المحاسن والمساوئ»[٤٢]...

وإذا تتبعنا هذه الطائفة وتعرفنا على أخبارها فى القرن الرابع الهجرى حتى عصر بديع الزمان وجدناها وقد اتضحت شخصيتها فى الحياة الاجتماعية

(٤١) البخلاء الجاحظ جـ ١ ص ٨٦.
(٤٢) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٦٢٢.

﴿ ٥٠٠ ﴾

بأوسع مما كانت عليه من قبل... وقد جعل البديع موضوعات مقاماته تدور غالباً حول صور متنوعة من حياة المكدين وحيلهم الخادعة وما يثيرون به اهتمام السامرين من أحاج وألغاز أو مطارحات أدبية أو مسائل نقدية أو حجاج مذهبى أو عظات دينية أو ما أشبه ذلك...

ولعل سبب اختيار البديع للكدية فى بناء المقامات يرجع إلى انتشارها فى أيامه كما قلت بأواسط آسيا فى صور شتى تألفت منها طائفة الساسانية من أعراب وأبناء سبيل وذوى عاهات وحواة وقرادة وسحرة ومشعوذين وغيرهم ممن كانوا يحتالون على جلب الرزق عن طريق الإمتاع بقص الأخبار ورواية الأشعار والمناظرة والتهاجى والمدح ونحو ذلك مما عقد بين الأدب والكدية نسباً... وقد اشتهر من شعراء هذه الطائفة حينئذ «الأحنف العكبرى» و«أبو دلف الخزرجى»... أما الأحنف فيقول عنه الثعالبى إنه شاعر المكدين وظريفهم ومليح الجملة والتفصيل منهم وقد روى له بعقب ذلك قصيدة دالية طويلة عرض فيها لحرفة الكدية عرضاً واسعاً(٤٣).

وأما أبو دلف فيقول عنه الثعالبى إنه «شاعر كثير الملح والطرف، مشحوذ المدية فى الكدية، خنق التسعين فى الإطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب وضرب صفحة المحراب بالجراب فى خدمة العلوم والآداب وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده، ولما أتحفه بقصيدته التى عارض بها دالية الأحنف العكبرى فى المناكاة وذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم اهتز ونشط لها وتبجح بها وتحفظها كلها وأجزل

(٤٣) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣ ص ١٠٤.

صلته عليها(٤٤).

وقد روى الثعالبى هذه القصيدة وفيها ذكر الألفاظ الاصطلاحية لأهل الكدية وما كانوا يتخذونه فى مناكاتهم من مصطلحات خاصة كما عرض لتفننهم فى هذه الحيل على صور شتى... وقد عرض بديع الزمان فى مقاماته لكثير من هذه الحيل، كما سمى مقامة له باسم المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة... وفى ذلك كله ما يؤكد الصلة ويوثقها بين بديع الزمان فى مقاماته وأهل الكدية فى زمنه... لقد استطاع بديع الزمان أن يتخذ من نمو هذه الطائفة فى عصره وما اشتهرت به من حيلها مجالاً خصباً تدور فيه مقاماته.

وللحقيقة فإن بديع الزمان فى أكثر مقاماته قد ركز موضوعها على الكدية والاستجداء إذ يظهر أبو الفتح الإسكندرى فى شكل أديب شحاذ يخلب الجماهير ببيانه العذب وفصاحته الآسرة وبلاغته الأخاذة وهو بهذه العدة من الفصاحة والبلاغة والبيان قادر بغير حدود على التأثير فى الجماهير الغفيرة من الناس والتسلل إلى قلوبهم واستخلاص ما فى جيوبهم وانتزاع إعجابهم وانبهارهم.

وللتدليل على ذلك فإن خمس عشرة مقامة من مقاماته لم يكن فيها مع الكدية غيرها وهى: الأزاذية، والبلخية، والسجستانية، والكوفية، والأذربيجانية، والجرجانية، والأصفهانية، والبصرية، والفزارية والمكفوفية، والنجارية، والقزوينية، والساسانية، والقردية، والناحمية... أما الباقيات فقد تضمنت مع انتهائها بالكدية غالباً أشياء أكسبتها جمالاً أهمها الوصف وقد وقع فى عشرين مقامة انحدرت خمس منها إلى هوة الكدية بوصفها ألوان الأطعمة والأشربة

(٤٤) نفسه ص ٣٢١.

وهى: البغدادية، والمضيرية والمجاعية، والنهيدية، والخمرية... وتناول سائرها وصف أشياء أخرى متباينة كالأسد والفاتك فى الأسدية، والفرس فى الحمدانية، وأنواع اللصوص وطرقهم فى الرصافية، والمغزل فى المغزلية، وكهل رث فى الشيرازية، وحمامى وحجام فى الحلوانية، والرجل يكون خشن الجانب أو لينه فى الخلفية (نسبة إلى خلف بن أحمد أحد الأجواد) واللص يتخذ ثوب الناسك فى النيسابورية، والعلم فى العلمية، وإخوان الدهر ما يفعلون وما يجب أن يفعل بهم فى الصيمرية، والملوك فى الملوكية، والدينار إلغازا فى الصفرية، والرجل يخدع مظهره ويؤذى مخبره فى السارية، والوضعاء يعلون فى التميمية، والمال والدعوة إلى فتح المطالب فى المطلبية،... ويأتى من بعد الوصف المطارحات الأدبية التى شغلت الناس فى هذا العصر وتضمنت تسع مقامات هى: القريضية، والغيلانية، والأسودية، والإبليسية، والعراقية، والشعرية، والجاحظية، والمارستانية، والدينارية... كما جاءت ثلاث مقامات فى الوعظ والإيصاء وهى: الأهوازية فى الحياة والموت، والوعظية فى الدنيا والآخرة، والوصية فى الاقتصاد والتجارة،... وجاءت ثلاث مقامات أخرى فى التمويه والتدجيل تمشياً مع ما كان شائعاً معهوداً وهى: الموصلية فى إحياء ميت، والحرزية فى عمل حرز يضمن النجاة من الغرق ثم الأرمينية فى التحيل لجلب الخبز والأدم(٤٥).

ومما يسترعى النظر ويثير الانتباه أن البديع ينحو فى بعض مقاماته نحو المدح والأصل فى المديح أن يكون شعراً، وهذا يدل دلالة بينة على أن

(٤٥) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى بالمشرق للسباعى بيومى ص ٢٢٩ وما بعدها.

النثر أخذ يزاحم الشعر فى هذا الغرض[٤٦] كما نرى أيضاً بعض مقامات البديع تتخذ النقد الأدبى موضوعاً لها، ويعرض فيها بديع الزمان أحكاماً أدبية تتصل بالشعر والشعراء والأدب والأدباء،... كذلك مما يسترعى النظر ويثير الانتباه ذلك الجانب الدينى الذى نرى فيه البديع مناوئاً لجماعة الملحدين، بل نراه يسلك طريق أهل السنة ويشن حرباً شعواء على خصومهم من المعتزلة، ومقامته المارستانية تصور هذا الجانب تصويراً دقيقاً. كذلك مما ينبغى الوقوف عنده والتمعن فيه ذلك الجانب التعليمى الذى يهدف إليه البديع فى بعض مقاماته، فنراه فى مقامته العلمية مثلا يصف لطالب العلم طريقه الصعب وما ينبغى أن يستعين به حتى يحصل على مرامه... وهناك مقامة من مقامات البديع تقتضى وقفة متأنية، ونظرة ثاقبة، وإدراكا واعياً لأنها أوحت لبعض الأدباء بأعمال خالدة، وآثار شاهدة تلك هى المقامة «الإبليسية» التى تدور حول لقاء عيسى بن هشام لإبليس فى واد من وديان الجن... ويرجع بعض الباحثين أن هذه المقامة الطريفة هى التى أوحت لابن شهيد الأندلسى أن يكتب رحلته المشهورة فى عالم ما وراء الطبيعة المعروفة باسم «التوابع والزوابع» إذ أن بين العملين معالم صلات واضحة حيث يدوران على لقاء شياطين الشعراء وراء عالمنا فى وادى الجن... بل يصرح ابن شهيد بلقائه لشيطان بديع الزمان ويعرض علينا صاحبه مثلا رفيعاً من أمثلة الفن يحتذى على مثاله وينسج على منواله.

هكذا نجد فى مقامات بديع الزمان تصويراً للبيئة وأحداث العصر وما توارد على المجتمع من ألوان الحياة وفنون العيش وطرائق الكسب وما شاع

(٤٦) المقامة لشوقى ضيف ص ٢٦.

فيها من مظاهر البؤس والشقاء وما كان يتتابع عليها من أحداث وما كان يسيطر على النفوس والعقول من أهواء ونزعات وما كان يدور بين الأدباء من مطارحات وألغاز ومناظرات، وما كان يجرى على ألسنة الزهاد من نصائح وعظات وما أشبه ذلك من شواغل الأذهان فى تلك الأزمان...

ومما تجدر الإشارة إليه أن ما فى المقامات من طرق الاحتيال والخديعة والمكر ينافى الناحية الأخلاقية ويجافيها ويعطى انطباعاً عن اختفاء الوازع الدينى وانعدام الضمير وانحلال قوة المراقبة الذاتية التى تربأ بالأنفس الكريمة من الوقوع فى حبائل الشرور وشرك الوسوسة الشيطانية مهما كانت الظروف، ومهما اشتدت الصعاب... وأيا ما كان الأمر فإن المقامات تعطى صورة عن مؤلفها بديع الزمان وما كان يتسم به من ذكاء نادر، وبصيرة نافذة، وسعة علم ومعرفة، وفيض خبرة وتجربة، وحيوية نفس، وخفة روح، وحضور بديهة، وبلاغة قول، وفصاحة لسان، وسحر بيان، يقول فى بعض رسائله: «فإنى وإن كنت فى مقتبل السن والعمر قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهرى البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وبلوت طعمى الحلو والمر، ورضعت ضرعى العرف والنكر، فما تكاد الأيام ترينى من أفعالها غريباً، أو تسمعنى من أحوالها عجيباً، ولقيت الأفراد، وطرحت الآحاد، فما رأيت أحداً إلا ملأت حافتى سمعه وبصره، وشغلت حيزى فكره ونظره...[٤٧].

ويرى زكى مبارك أن البديع معتد بنفسه معجب بها كما أن مقاماته تعبر عن فلسفة واحدة هى السخرية من العالم واقتناص ما يملكون بشتى

(٤٧) رسائل بديع الزمان ص ١٠١ وما بعدها.

الحيل والمداوزات وهو بذلك قد وفق فى نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعة والإسفاف ويقول:(٤٨) «والذى يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه فى أكثرها يحارب معاصريه من الكتاب والرؤساء ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلاً، ولا يمكن أن تكون لبديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطة الصاخبة التى ألفها فى حياته وهى العنف المطبق فى البحث عن أسباب الغنى والجاه...».

وأرى أن زكى مبارك أسرف فى التحامل على الرجل لأن بديع الزمان فى مقاماته إنما يصدر عن بيئته وعصره متأثراً بكل الظروف المحيطة به، ولا تثريب عليه حين يركز زاوية الالتقاط الفنى فى مقاماته على بعض المساوئ والهنات بغية ترفيه أو نصح وتوجيه.. وزكى مبارك نفسه يقرر ذلك حيث يقول: (٤٩) «ومهما يكن من شئ فلن يمكن نكران ما وفق إليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعة والإسفاف وما إلى ذلك من الهنات التى يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء ثم لا يكونون فى أنفسهم وفى سلوكهم إلا برهاناً على فساد الحياة ونقص الأحياء...».

(٥)

الراوية والبطل فى مقامات البديع:

أجرى البديع حديثه فى مقاماته بين رجلين هما «عيسى بن هشام»

(٤٨) النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى لزكى مبارك جـ ٢ ص ٣٥٥.
(٤٩) نفسه جـ ٢ ص ٣٥٦.

راوية و«أبو الفتح الإسكندرى» بطلا مستجدياً، ويقول الحريرى عنهما فى مقدمة مقاماته: «كلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف ومعنى هذا أنهما من مبتكرات الخيال ولا وجود لهما إلا فى صفحات الكتاب...» أما أبو الفتح الإسكندرى فأغلب الظن فعلاً أنه لا وجود له، ولذلك اختار البديع أن يكنيه دون أن يسميه، والكنية قلما تستقل فى تعيين صاحبها، ولعل البديع قد جرى فى ذلك على نهج (ابن دريد) فى اختراعه أسماء لا وجود لأعيانها ونسبته وقائع أحاديثه إليها تأثراً به واتباعاً لطريقته.

أما عيسى بن هشام فقد ذكر أبو شجاع شيروية بن شهر دار المتوفى عام ٥٠٩هـ فى كتابه (تاريخ همذان) أنه شيخ البديع الذى رواه الأخبار ونقل ذلك عن أبى شجاع ياقوت فى معجم الأدباء وفى ذلك الخبر غرابة لأن من أرخوا للبديع ممن عاصروه أو كانوا على قرب من عصره لم يذكروا ذلك الاسم بين أسماء شيوخه ولعل ذلك وهم منه ناشئ عن قول البديع فى مطلع كل مقامة «حدثنا عيسى بن هشام» وإلا لنبه الحريرى على ذلك ولما جعله مجهولاً لا يعرف ونكرة لا تتعرف... ولو صح خبر أبى شجاع لكان اختيار البديع له أثراً آخر من آثار ابن دريد الذى كان ينسب روايته مخترعاته إلى رجال من أعيان الرواة إحكاماً للاختراع، وتلبيساً على السامع والقارئ أنه حقيقة واقعة لاخيال، فابن دريد يبدأ أحاديثه دائماً بالسند وفى نص الحصرى السابق ما يشير إلى أن أحاديث ابن دريد من مخترعه، ومعنى ذلك أن سندها أيضاً من مخترعه وكأن ابن الكلبى وغيره ممن يسند إليهم أحاديثه ليسوا أكثر من رمز إلى سنة الرواة وفى الحقيقة لا رواية ولا راو وإنما هى أحاديث من

عمل ابن دريد ومن نسج خياله[٥٠]. وبديع الزمان هو الآخر يجرى مقاماته فى سنده الخاص الذى أنشأه لنفسه إنشاء، واخترعه اختراعاً جرياً على العادة المألوفة والسنة المتبعة...

والراوية والبطل يمثلان عنصراً رئيسياً من عناصر المقامة التى ابتدعها بديع الزمان وسار على نهجه فيها مترسماً خطاه سائر المقاميين من بعده... وعلى سبل المثال ففى مقامات الحريرى راوية هو الحارث بن همام وبطل هو أبو زيد السروجى، وفى مقامات السيوطى راوية هو هاشم ابن القاسم وبطل هو أبو بشر وفى مقامات ناصيف اليازجى راوية هو سهيل ابن عباد وبطل هو مأمون ابن خزام وفى مقامات أحمد فارس الشدياق راوية هو الحارث بن هشام وبطل هو الفارياق وفى مقامات المويلحى راوية هو عيسى بن هشام وبطل هو أحمد باشا المنيكلى... والمرجح أن هذا التقليد الذى اتبعه الهمذانى ومن سار على نهجه من المقاميين فى مختلف العصور حين رووا مقاماتهم عن راوية معين إنما جاءهم من السند والاهتمام بالرواية فى الأحاديث النبوية الشريفة لإثبات صحتها والتعرف على الموضوع منها، وإن جاء ذلك فى المقامات على سبيل التخييل والاختراع رمزاً وإشارة إلى المعهود من سنة الرواة[٥١].

والملاحظ فى اختيار اسم الراوية والبطل خضوعه لملمح السهولة ويسر الحفظ أو ثباته فى الأذهان وتحاشى وقوع اللبس والنسيان فيه لغرابته ولكونه لا يتشابه مع غيره من أسماء الشخصيات القائمة المعروفة ولذلك أصبحت هذه الأسماء أعلاماً مشهورة موصولة بهذه الأعمال الأدبية الخالدة.

(٥٠) المقامة لشوقى ضيف ص ٢٤.

وشخصية البطل فى هذه المقامات أو فى معظمها شخصية متميزة بسماتها وملامحها وقدرتها على التأثير وكسب العطف والتأييد ومن هذه السمات والملامح: الحيوية... والنشاط وخفة الروح وسعة الحيلة وحضور البديهة ولمح الخاطر وسرعة الحركة وبراعة التصرف وحسن التخلص ووفرة العلم وغزارة المعرفة وحدة الذهن وشدة الذكاء... وما ذلك إلا لأن شخصية البطل تمثل ركيزة كبرى تعتمد عليها أحداث المقامة ويؤسس بناؤها الفنى على خير مثال.

وقد يقاسم الراوية البطل ويشاركه فى بطولته فيكون ذلك أدعى للإثارة والإعجاب كما نلمس ذلك فى حديث عيسى بن هشام للمويلحى... وقد يلعب الراوية دور البطل ويستأثر بالبطولة على نحو ما نرى فى المقامات: الغيلانية، والمغزلية، والحلوانية، والنهيدية، والصيمرية لبديع الزمان...

وهكذا كانت شخصية الراوى كما كانت شخصية البطل عنصراً رئيسياً وأساساً جوهرياً فى البناء الفنى للمقامة كما أراد لها منشئها ومبدعها أن تكون عملاً أدبياً إبداعياً مثيراً مؤثراً على مر العصور...

(٦)

مقامات البديع بين الطبع والصنعة ومنزلتها بين القصة والمقالة:

صاغ البديع مقاماته على طريقته التى عرف بها وشاعت بين أدباء طبقته وكتابها وافتتن الناس بها فى عصره: عصر البهارج والزخارف والبدع والبدائع، عصر العجائب والمثيرات... وأعنى بها تلك الطريقة التى تعتمد

(٥١) أثر المقامة فى القصة المصرية ص ١٩.

على السجع والجناس ومراعاة النظير والمقابلة والطباق والتورية وسائر المحسنات البديعية والزخارف اللفظية والمعنوية التى أقبل عليها البديع بشغف واقتدار وصدر فيها عن طبع مطبوع، وسليقة نفاذة، وموهبة طيعة، وافتنان عجيب.

لقد كانت هذه المحسنات والزخارف مذهباً فنياً متبعاً وطريقة أدبية ملتزمة آنذاك، ولم يكن هناك قصور فى تناول المعانى وعرض الأفكار مع استخدام هذه الزخارف والمحسنات التى اتسع لها صدر اللغة العربية ولم يضق بها بفضل ما توفر لها من غزارة المفردات وتنوع طرائق الاشتقاق وتعدد الأساليب وكثرة المترادفات ووفرة الصيغ والأوزان، وكان البديع - إلى ذلك - يكثر من الحكم وإيراد الأمثال والاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وتضمين الشعر...

وقد عد بعض الباحثين ذلك كله تصنعاً غثاً وتكلفاً ممقوتاً وقيوداً وأغلالاً وأحمالاً ثقالاً... يقول شوقى ضيف[٥٢] «وإذا كان البديع يعنى بأساليب التصنيع عناية واسعة فإننا نراه وقد أفرط فى ذلك إفراطاً أتاح لضروب من التصنع أن تتسرب إلى كتاباته... إنه يحاول دائماً أن يأتى بجديد فى فنه وقد أدته هذه المحاولة إلى ضروب من التصنع لا عهد لأصحاب التصنيع بها فنراه يعمد إلى إعنات نفسه فى صناعته حتى يقع عمله من أهل عصره موقعاً غريباً فنراه يلجأ إلى المبالغات والتهويلات ويجنح للغريب فى نثره كأن الغريب غاية جمالية مقصودة يسعى إليها الكاتب بكل ما أوتى من قوة، كما كان يكثر من الأمثال فى نثره والاقتباس من القرآن الكريم وتضمين الشعر...

(٥٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٤٤.

وهذه كلها ظواهر عهد من التصنع أعد له القرن الرابع الهجرى، ولعل ذلك ما جعل البديع يميل إلى اللعب والعبث فى صناعته...».

ونحن لا نتفق مع شوقى ضيف على هذا الإطلاق وبخاصة إذا كان كلامه يمس علماً بارزاً من أعلام النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى له وزنه وثقله وله مكانته وقدره حتى أطلق عليه معاصروه «بديع الزمان» إذ من المعلوم أن هذه المحسنات والزخارف والشيات كانت تشكل بدورها عنصراً آخر من عناصر المقامة وخصيصة جوهرية من خصائصها باعتبارها مضموناً وصياغة وقد أبدعتها موهبة فذة، وحاكتها يد صناع قلما يجود الزمان بمثل صاحبها «بديع الزمان» الذى كان يعرف لنفسه هذه القدرة العجيبة وهذه الموهبة النادرة الفريدة وكان يباهى بقوله: إنه يستطيع أن يكتب كتاباً يقرأ منه جوابه، أو كتاباً يقرأ من آخره إلى أوله أو كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً فإن عكست سطوره مخالفة كان جواباً، أو كتاباً أول سطوره كلها ميم وآخرها جيم أو كتاباً إذا قرئ معرجاً وسرد معرجاً كان شعراً... أو كتاباً إذا فسر على وجه كان مدحاً، وإذا فسر على وجه كان قدحاً[٥٣]. وهكذا مما حدا بالخوارزمى أن يقول عن هذه الأنماط والأصناف حين سمعها «إنها شعبذة» وكان البديع مولعاً بهذه الطريقة شديد الحماس لها مما جعله يرد على الخوارزمى بقوله:

«إنك لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم المتناول بكل يد وفم»[٥٤]. وما أوجه إليه النظر أن البديع لم

(٥٣) رسائل بديع الزمان ص ٧٤.
(٥٤) نفسه ص ٧٦.

﴿ ٥١١ ﴾

يتحول فى عمله كله إلى هذه الوجهة لكننا نجد عنده بعض عناصرها وبعض مقدماتها وفى رسائله العديدة أكبر دليل على ما أقول فقد جاء فى رسالة له وقد نهبه اللصوص أثناء رحيله من جرجان إلى نيسابور قوله «كتابى وأنا أحمد الله إلى الشيخ وأذم الدهر، فما ترك لى فضة إلا فضها، ولا ذهباً إلا ذهب به، ولا علقاً إلا علقه، ولا عقاراً إلا عقره، ولا ضيعة إلا أضاعها، ولا مالاً إلا مال إليه، ولا حالاً إلا حال عليه، ولا فرسا إلا افترسه، ولا سبدا إلا استبد به، ولا لبدا إلا لبد فيه»(٥٥). وتأمل قوله فى إحدى رسائله مفضلاً العرب على العجم «العرب أوفى وأوفر، وأوقى وأوقر وأنكى وأنكر، وأعلى وأعلم، وأحلى وأحلم، وأقوى وأقوم وأبلى وأبلغ، وأشجى وأشجع، وأسمى وأسمح، وأعطى وأعطف، وألطى وألطف، وأحصى وأحصف»(٥٦).

إننا نشعر بغير شك أننا أمام طريقة قد تجاوزت المألوف والمعروف من طرق الكتابة الفنية وذهب فيها البديع مذهباً كان على غيره صعباً عسيراً، وتكلفا بعيداً، وتصنعاً ثقيلاً وكان على نفسه سهلاً ميسوراً، وإيداعاً محموداً، وسبقاً معدوداً، وتميزاً مشهوداً...

وليس ذلك بغريب أو عجيب على بديع الزمان وهو الذى امتلك ناصية البيان وانقادت له أساليب الكلام، وجرت على لسانه فنون القول سلسلة طيعة دون جهد أو إعنات، بل صدرت عنه عفو الخاطر، وفيض الشعور، وطوع الاقتدار،... ونبع الافتنان...

لذلك لم يكن بوسع أحد من النقاد أن يصف أسلوب البديع بالتصنع

(٥٥) رسائل بديع الزمان ص ١٠٤.
(٥٦) نفسه ص ٢٧٩.

والتكلف، بل كان أقصى ما وصل إليه ناقد معاصر كشوقى ضيف فى هجومه على مقامات البديع أن يعتبرها مقدمة من مقدمات مذهب التصنع والتكلف ثم نراه يشبه المقامة من مقاماته بواجهه أحد المساجد المزخرفة لعهده لكثرة ما شغل فيها بالتنميق والتصنيع والترصيع(٥٧). ثم يقول(٥٨). ومن أجل ذلك اختار صيغة السجع لمقاماته، وكانت هى الصيغة التى يعجب بها عصره... وهو يظهر براعة فائقة فى استخدامها... وكانت تسعفه فى ذلك حافظة نادرة، وبديهة حاضرة، وذكاء حاد، وإحساس دقيق باللغة ومترادفاتها وأبنيتها واستعمالاتها المختلفة... كان سجعه فى جملته خفيفاً رشيقاً فليس فيه تكلف، وليس فيه صعوبة ولا جفاء فهو دائماً كأنما يستمد من فيض لغوى لا ينفذ، وتراه إزاء المعنى وكأنه الصائد الماهر الذى يحسن إلقاء شباكه على صيده فلا يخطئه، بل يصيبه دائماً... فليس هناك معنى يعسر على البديع التعبير عنه، وليست هناك كلمات تختفى منه وراء حواجز اللغة ومتشابكاتها، بل الكلمات تقبل عليه من كل جانب ليختار منها ما يريد له هواه، وما تريد له حاسته اللغوية الدقيقة... وهذا كله يدل من جهة على محصول لغوى واسع، كما يدل على ذوق بديع، يعرف كيف يختار الكلمة المناسبة، وكيف يضعها فى مواضعها، فلا نبو ولا شذوذ بل دائماً دقة وضبط وإحكام فى عذوبة وسلاسة وتناسق وانسجام. وهو يمسح على ذلك بروح فكاهية بديعة تتخلل مقاماته فتجعلها أكثر قبولاً لدى النفوس...» نعم... لقد كان البديع فى كثير من رسائله ومقاماته كاتباً سلس العبارة، عذب الألفاظ، جيد الصنعة، سهل الأسلوب تنقاد له المعانى ويواتيه التعبير عفو الخاطر، طلق البديهة جميل الإيقاع، بديع

(٥٧) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٥٤.
(٥٨) المقامة ص ٣٢ وما بعدها.

النغم، فيه رقة وسلاسة، وفحولة وجزالة وجدة وابتكار، وفيه الأنماط البديعية المحكمة ذات الوشى العجيب، والطراز الغريب، وفيه الحكم الخالدة، والأمثال النادرة، وبراعة التضمين، وحسن الاقتباس. يقول صاحب زهر الآداب تحت عنوان «جملة من كلام بديع الزمان»[٥٩]. (وهذا اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، وكلام غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً... ويقول عن المقامات: إنها تذوب ظرفاً، وتقطر حسناً، وقد عطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبو الفتح الإسكندرى، وجعلهما يتهاديان الدر، ويتنافثان السحر، فى معان تضحك الحزين، وتحرك الرصين؛ يتطلع منها كل طريفة، ويوقف فيها على كل لطيفة...).

ولم يكن هذا رأى الأقدمين وحدهم فى البديع ومقاماته بل كان أيضاً رأى كثير من الباحثين المعاصرين الذين يرون أن البديع فى مقاماته قد أبدع الإبداع كله ولهذا بعد فيها عن تكلف صناعات البديع فجاءت قليلة الغريب، سهلة التناول، يتعشق أول الكلام فيها آخره، ويرتبط بعضه ببعض ارتباطاً يؤذن بصفاء قريحة، وطول باع، فأنت إذا بدأت فى قراءة واحدة منها تخيلت نفسك قد حللت روضاً ممتعاً ينسيك كل شئ غيره، وكلما سرحت نظرك فى خميلة من خمائله، أو زهرة من أزهاره، تطلبتك أجمل منها حتى لا تشعر إلا وقد انتهيت إلى سياجه»[٦٠]. وليس هذا مطلق حكم، أو عفو كلام، أو مجرد قول يفتقد الدقة ويعوزه التمحيص... بل إنه حكم يستند إلى نظر ودليل

(٥٩) زهر الآداب للحصرى جـ ١ ص ٢٧٣.
(٦٠) السباعى بيومى - تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى بالمشرق ص ٢٣٠.

وبرهان، وكلام صادر عن بينة ويقين وعرفان وقول تؤيده شواهد الإبداع والإحسان.

لكن هذا الكلام قد لا يرضى الكثير من النقاد والباحثين الذين ارتسمت فى أذهانهم صورة معينة لقصة عصرية رأوا فيها المثال الفنى الذى كان ينبغى أن يلتزم به البديع وغيره من كتاب المقامات وكأنهم بذلك يريدون أن يفرضوا على البديع وغيره أن يحولوا المقامة إلى قصة فنية عصرية تختال فى ثياب القرن العشرين وإلا فلتصب اللعنات على المقامات وصناع المقامات!!! وهذا عجيب!!! إذ أن المقامة أنشئت وأبدعت لكى تكون مقامة بكل خصائصها وسماتها ولم يقل أحد من مؤلفيها أنه أبدع «قصة» حتى نحاسبه بمعيار القصص الفنى... وإذا كان الإجماع قد انعقد على أن المقامات تمثل مرحلة خاصة من مراحل تطور القصة فى الأدب العربى فليس معنى ذلك أن نعلن عليها الحرب ونحط من قدرها لا لشئ إلا لأنها لم تبلغ مبلغ القصة بمصطلحها الفنى المعاصر:

الحقيقة أنه ليس من حق أحد أن يقول لو أن البديع وجه الاهتمام إلى المضمون الفنى وركز على الإبداع الخيالى فى سير الأحداث وتنمية العقد وحبك المشكلات والأزمات، وتخفف من أعباء الزخارف والمحسنات وتخلص من المبالغات والتهويلات ومظاهر الإغراب والإعنات لكان لنا من مقاماته لون من القصص الفنى المتكامل ولكان قد فتح طريقاً بالغ الروعة أمام القصة الفنية فى أدبنا العربى بلا جدال...

ليس من حق أحد أن يأخذ على البديع فقدان بعض الخصائص والمقومات للقصة الفنية لأن حوادثها لا تتسلسل ولأن الحبكة القصصية فيها

ضعيفة والحوار تنقصه الحيوية والإثارة والتشويق وأن العقدة أو المشكلة التى تنتهى بحلها القصة ضئيلة هزيلة أو معدومة فى بعض الأحيان والخط الدرامى غير واضح المعالم لكل شخصية من الشخصيات، ولأن التطويل والإطناب فوتا على المتلقى عنصر الإثارة والتشويق ولأن ميله إلى الإغراب واستعماله الكلمات المعتاصة غير المسموعة لا يمكن أن يعد لوناً من ألوان الجمال.

أقول: ليس من حق أحد ذلك لأننا بصدد عمل فنى أطلق عليه صاحبه اسم «المقامة» وميزه بخصائص وسمات، والتزم فيه بمقومات، وحرص من خلاله على تحقيق أهداف وغايات، فهو يمضى فى عمله الفنى وفق خطة مرسومة وأساليب معلومة وغاية مدروسة وهو لم يقل إنه أنشا قصة حتى نحاسبه ونؤاخذه بمعيار القصة ونفرض عليه بشكل أو بآخر أن يترك «المقامة» ويؤلف «قصة» بمقياس عصرى حديث وهو ابن القرن الرابع الهجرى بكل ما يمثله من ثقافة وفكر وفلسفة وأحداث ومشكلات وتيارات ومذاهب واتجاهات...

وقد جاءت المقامات صورة صادقة معبرة عن ذلك كله... عبرت عن المجتمع بألوانه فى عصرها فلم يدانها فن نثرى آخر من رسائل أو خطب فى رسم هذه الصورة لحالة العصر فكانت المقامة مرآة للحياة آنذاك نرى فيها تعقيداً لغوياً يعبر عن التعقيد السائد فى المجتمع، ونرى تكلفاً فى الإكثار من المحسنات البديعة يعبر عن روح التكلف السارى فى أوساط الناس بغير حدود، ونرى السخرية اللاذعة من بين السطور تعبيراً عن الآلام والمظالم التى لم يسلم منها أحد من جراء الفوضى والاختلال، ونرى النفاق والتلون من سمات حياة بطل

المقامات يعبر عن نفاق المجتمع كله حاكمه ومحكومه على السواء(٦١).

ونرى فيها احتيالاً بارعاً للحصول على الأموال وكسب العيش وتفتيق أسباب الرزق بطرق وأساليب تعد غاية فى الذكاء والدهاء نتيجة لما شاع فى المجتمع من مظاهر الفقر والبؤس والشقاء وتعبيراً عن التناقض البالغ والتفاوت البشع بين الطبقات...

وقد نراها خالصة للمديح والإشادة فتسامى الشعر فى غاياته وتباريه فى مضماره، وتعزف على قثياره، وتشدو بألحانه وأنغامه...

وقد نراها وقفاً على الدراسة الأدبية والأحكام النقدية الموصولة بالشعر والشعراء والأدب والأدباء فتكون تعبيراً قوياً عن ازدهار الحركة الأدبية والنقدية فى القرن الرابع الهجرى...

إننا نرى ذلك كله فنحس إحساساً عميقاً بأن المقامة بنت عصرها وبيئتها، وصنيعة مبدعها ومنشئها من وحى شعوره ووجدانه، وفصاحته واقتداره، وبراعته وإبداعه... وأنها صيغت لتكون «مقامة» لا لتكون قصة أو مقالة فجاءت كما أريد لها أن تكون... لكنها مع ذلك لن تكون مجرد «مقالة» لأن هناك راوية وبطلا وحواراً وأحداثاً وإثارة وإمتاعاً.

ومع ذلك فإن الباحث المنصف لا يخطئه حسه عن تلمس بذور الأقصوصة الفنية فى إحدى عشرة مقامة همذانية عدا وإحصاء وهى: الأسدية والأصفهانية والبغدادية والموصلية والمضيرية والحلوانية والأرمينية والصيمرية والخمرية والمطلبية والبشرية... هذه المقامات القصصية عند بديع

(٦١) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة ص ١٨.

الزمان الهمذانى تتجلى فيها براعة الصياغة، وقوة الإثارة وتألق الأسلوب وتبلور الفكرة والموضوع ووضوح الغاية والهدف وتأصل ملامح الشخصية وبروز عنصر الحوار وظهور العقدة والمشكلة وتمثل روح العصر فيها ولذلك كله اعتبر بديع الزمان واضع أساس الأقصوصة فى صرح الأدب القصصى وأنه رائد القصة العربية بلا جدال(٦٢).

وسأتناول بالتحليل واحدة من هذه المقامات القصصية عند عرض نماذج من مقامات بديع الزمان لتكون خير دليل وبرهان.

(٧)

نماذج من المقامات البديعية:

المقامة البغدادية(٦٣)

«حدثنا عيسى بن هشام قال: اشتهيت الأزاذ، وأنا ببغداذ، وليس معى عقد على نقد، فخرجت أنتهز محاله، حتى أحلنى الكرخ، فإذا أنا بسوادى يحدو بالجهد حماره، ويطرف بالعقد إزاره، فقلت: ظفرنا، والله بصيد، وحياك الله أبا زيد..،! من أين أقبلت؟ وأين نزلت؟ ومتى وافيت؟ فهلم إلى البيت. فقال السوادى: لست بأبى زيد، وإنما أبو عبيد، فقلت: نعم، لعن الله الشيطان وأبعد النسيان، أنسانى طول العهد بك، كيف أبوك، أشاب كعهدى أم شاب بعدى؟ قال: نبت المرعى على دمنته، وأرجو أن يصيره الله إلى جنته، فقلت: إنا لله،

(٦٢) انظر: مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذانى رائد القصة العربية ص ٢٧٩ ومحمد رشدى حسن: أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة ص ٢٩.
(٦٣) زهر الآداب للحصرى جـ ٢ ص ٣٠٩.

﴿ ٥١٨ ﴾

ولا قوة إلا بالله، ومددت يد البدار إلى الصدار أريد تمزيقه، وأحاول تخريقه، فقبض السوادى على خصرى بجمعه، وقال: نشدتك بالله لا مزقته، فقلت: فهلم إلى البيت نصب غداء، أو إلى السوق نشترى شواء، والسوق أقرب، وطعامه أطيب، فاستفزته حمة القرم، وعطفته عطفة النهم، وطمع ولم يعلم أنه وقع، ثم أتيت شواء يتقاطر شواؤه عرقاً، ويتسايل جوذابه مرقاً، فقلت: أبرز لأبى زيد من هذا الشواء، ثم زن له من تلك الحلواء، واختر من تلك الأطباق، ونضد عليها أوراق الرقاق، وشيئاً من ماء السماق، ليأكله أبو زيد هنيأ، فأنحى الشواء بساطوره، على زبدة تنوره، فجعلها كالكحل سحقاً، وكالطحين دقاً، ثم جلس وجلست، ولا نبس ولا نبست، حتى استوفيناه وقلت لصاحب الحلواء: زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين، فإنه أجرى فى الحلوق، وأسرى فى العروق، وليكن ليلى العمر، يومى النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤلؤى الدهن، كوكبى اللون، يذوب كالصمغ، قبل المضغ ليأكله أبو زيد هنيأ، فوزنه، ثم قعد وقعدت، وجرد وجردت، واستوفيناه، ثم قلت: يا أبا زيد، ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج، ليقمع هذه الصارة، ويفثأ هذه اللقم الحارة، اجلس أبا زيد حتى آتيك بسقاء، يحيينا بشربة من ماء، ثم خرجت وجلست بحيث أراه ولا يرانى، أنظر ما يصنع به، فلما أبطأت عليه قام السوادى إلى حماره، فاعتلق الشواء بإزاره، وقال: أين ثمن ما أكلت؟ قال: ما أكلته إلا ضيفا! قال الشواء: هاك وآك متى دعوناك؟ زن يا أخا القحبة عشرين، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين، فجعل السوادى يبكى ويمسح دموعه بأردانه، ويحل عقده بأسنانه، ويقول: كم قلت لذلك القريد: أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد فأنشدت:

اعمل لرزقك كل آله ... لا تقعدن بذل حاله

وانهـــض بكـــل عزيمـــة فـــالمرء يعجـــز لا المحالـــه[٦٤]

ولا شك أننا إزاء أقصوصة تمثيلية حوارية من طراز خاص ابتدعه بديع الزمان إنها تمثيلية حوارية من فصل واحد فى ثلاثة مشاهد كما رأينا وكل مشهد مرتبط بما قبله وما بعده فى حبكة فنية بارعة وأحداث متتابعة وحوار متواصل وأسلوب أنيق، ولفظ رشيق، وتصوير دقيق، وتعبير مثير يستخف القارئ والسامع مرحاً وطرباً ويأخذ بلبهما انبهاراً وعجباً ويمضى البديع فيها على بديعه من سجع وجناس وطباق وازدواج بحس مرهف وذوق رقيق وبراعة فى التجميل والتنميق... وعرض شائق جذاب لأساليب الاحتيال ومظاهر الغفلة والغباء وشواهد الذكاء والدهاء لنكون على ذكر دائم أننا إزاء مقامة بكل خصائصها وسماتها وإن تكاملت فيها سائر العناصر القصصية من الزمان والمكان والأحداث والشخصيات والعقدة والحل والحبكة الفنية والإثارة والفكاهة والمرح ذلك إلى جانب أسلوبها المتميز بالحيوية والسلاسة وعذوبة

(٦٤) الأزاذ: من أجود أنواع التمر، بغداذ: هى بغداد - ليس معى عقد على نقد: أى ليس معى نقود يعقد عليها الكيس والثوب - المحال: جمع محل الكرخ: من الجانب الغربى من بغداد - السوادى: الرجل من قرى العراق يطرف بالعقد إزاره: أى يرد أحد طرفيه إلى الآخر - كعهدى: أى كعهدى به حين عرفته - الدمنة: أثار الديار ولا ينبت الربيع عليها إلا حين يبعد عهدها بالخراب والمراد هنا قبره والمعنى أن أباه مات من زمن طويل البدار: المسارعة - الصدار: قميص صغير يلى البدن - يجمعه: جمع الكف قبضته - الحمة: إبرة العقرب يلسع بها من يلمسه والمراد حرقة الجوع والقرم: شدة الشهوة إلى اللحم - الجوذاب: خبز يوضع فى التنورة ومعه طاثر أو لحم - السماق: حب أحمر صغير شديد الحموضة شجره يشبه الرمان اللوزينج: نوع من الحلواء يصنع من خبز مخصوص يسقى بدهن اللوز ويحشى بالجوز - ليلى العمر: صنع من ليلته - يومى النشر: فى يومه - جرد وجردت استعد كل منهما للطعام بتخليص الأيدى من الثياب - الصارة: العطش - يفثأ: يسكن ويكسر من حدة حرارتها.

الإيقاع وجمال النغم وحلى البديع والخفة والرشاقة والمهارة الفنية البالغة.

والشخصيات فى المقامة «البغدادية» هى: عيسى بن هشام، والسوادى والشواء. عيسى بن هشام: رجل متحضر يسكن المدن ولكنه مفلس لا يحترف صنعة ولا يقوم بعمل يعتمد عليه فى تدبير معاشه إنما هو محترف للنصب والاحتيال، وقد وجدناه فى هذه المقامة متسماً بعدة مواهب فهو ذكى فطن، لبق فصيح سريع البديهة، حاضر الجواب، يقرض الشعر أو يتمثل به وهو يحسن التصرف فى المواقف، ويجيد التخلص فى الأزمات والمشكلات لكنه لا يحمل بين جنبيه قلباً ينبض بالإنسانية أو يدفعه إلى سلوك رشيد، أو التزام بقيم أخلاقية فى علاقاته بالناس، بل إنه يفقد الوازع الدينى فى نفسه فلا يكاد يحس بوخز ضمير أو تأنيب حين يقترف إثماً أو يرتكب جرماً بل نراه يخرج من فعلته معتداً بنفسه مزهوا كأنما قد أصاب غنماً وحقق نصراً.

والسوادى: قروى فى زى أهل السواد المعروف وقد رسم لنا بديع الزمان هيئته على لسان بطله عيسى بن هشام بجمل مقتضبة (يسوق بالجهد حماره، ويطرف بالعقد إزاره) ونستشف من خلال الحوار مع هذا السوادى أنه ذو نفس طيبة مفعمة بالسذاجة والبساطة والثقة المطلقة فى الناس، وهذه الصفة لا ينفرد بها «أبو عبيد» بل يشاركه فيها أكثر أهل السواد الذين يتسمون بالفطرة النقية والطبيعة السمحة ولم تفسدهم حياة المدن بأدرانها وأوشابها وعقدها ومشكلاتها ومجونها وشهواتها ومكائدها وأحابيلها وغير ذلك مما تكاد تخلو منه بيئتهم البسيطة... وقد تجلت سذاجة السوادى فى عدم فطنته إلى ما وراء حفاوة عيسى بن هشام به واقتحام الطريق عليه ومد يد الترحيب إليه على غير سابق معرفة، وإلى تحول مكان الدعوة من البيت إلى السوق بحجة

أنه أقرب وطعامه أطيب، كما تجلت هذه السذاجة فى جلوسه منتظراً عودة عيسى بن هشام بالماء البارد المشعشع ثم اعتزامه مغادرة المطعم دون أن يسائل نفسه عن حقيقة الأمر أو يساوره الشك فى شئ وأخيراً استسلامه للبكاء كما يبكى الطفل الغرير... ومثل هذه الشخصية قد نصادف مثيلاً لها خلال حياتنا اليومية فى بعض الفلاحين البسطاء الذين يفدون إلى المدن من قراهم وقد يقعون فريسة سهلة فى براثن من يستغل سذاجتهم ويبتز أموالهم أو يبيعهم «ساعة ميدان» أو «حديقة عامة» أو «جمازا» «ترامًا» أو «حافلة».

والشواء: دوره ثانوى فى هذه الحوارية فهو صامت منهمك فى عمله وليس عليه إلا أن ينفذ أوامر عيسى بالسمع والطاعة ويستجيب لطلباته بدقة، لكنه حين أحس بضياع حقه وجدناه شرساً بذئ اللسان فاحش الكلام تسبق يده لسانه على أى حال، ومثل هذه الشخصية التى تثور وتهيج وتسب وتقذع عندما تشتم بادرة تمس حقوقها ومصالحها لا نعدم لها نظيراً فى كل عصر لدى بعض الباعة والتجار فى الأسواق... وهذا يعنى أن شخصيات الهمذانى فى هذه المقامة نماذج بشرية حية نتجاوب معها فى كل عصر مع ارتباطها الوثيق بعصرها ودلالتها على بيئتها ولقد أجرى بديع الزمان حواراً رشيقاً معبراً على لسان كل شخصية بما يتفق مع سماتها... فكلام عيسى بن هشام سريع متلاحق طويل النفس إلى حد ما يكاد يطغى على كلام السوادى وكلام السوادى موجز مقتضب لا يرد إلا جواباً على سؤال أو استفسار... بل إن عيسى بن هشام يكاد يستأثر بالكلام فلا يدع فرصة لضيفه أن يفكر أو يتكلم وقد لاحظنا أن المشهد الثانى قد خلا من كلام «السوادى» وهذه مهارة فنية من بديع الزمان اقتضاها انهماك السوادى فى الطعام وكون دوره منفعلاً أكثر منه فاعلاً.

﴿ ٥٢٢ ﴾

والحق أن المقامة «البغدادية» إلى جانب عدد قليل من مقامات بديع الزمان تحظى بهذه السمات القصصية البارعة واللمحات الفنية الرائعة والمشاهد الحيوية المثيرة والحبكة الإبداعية المحكمة بينما نجد فى غيرها من المقامات سرداً للعبارات، ومهارة فى استخدام الأساليب وزخارف البديع وفنون القول، وأعاجيب الكلام، دون أن يكون لها نصيب من مثل هذا العرض الفنى القصصى البارع فى المقامة «البغدادية» أما عن المفهوم السلوكى الذى يحمله بطل المقامة من احترافه الاحتيال وتسليه ببكاء ضحيته والأخذ بالمبدأ القائل بأن الغاية تبرر الواسطة أو الوسيلة فذلك بغير شك وليد ظروف اجتماعية معقدة وفقدان التوازن بين الطبقات وشيوع البطالة والكدية بين جماعات الأدباء والشعراء والمثقفين إلى جانب ما انصب على العرب من ثقافات وعادات وتيارات واتجاهات لأقوام من ترك وفرس وهند وروم وصين وكرد وزنج وما تبع ذلك من فساد القيم الخلقية واضطراب المثل العربية العليا والمبادئ الإسلامية الرشيدة.

المقامة الساسانية:

حدثنا عيسى بن هشام قال: أحلتنى دمشق بعض أسفارى، فبينا أنا يوماً على باب دارى، إذ طلع على من بنى ساسان كتيبة قد لفوا رءوسهم وطلوا بالمغرة لبوسهم، وتأبط كل واحد منهم حجراً يدق به صدره وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه، ويدعو ويجاوبونه فلما رآنى قال:

أريد منك رغيفا يعلو خُوانا نظيفا
أريد ملحاً جريشا أريد بَقْلاً قطيفا
أريد لحماً غريضا أريد خَلاً ثقيفا

أريـــــد جَدْيـــــا رضيعـــــا أريـــــد سَـــــخْلاً خروفـــــا
أريـــــد مـــــاء بثلـــــج يغشـــــى إنـــــاء طريفـــــا
أريـــــد دَنَّ مُـــــدَام أقـــــوم عنـــــه نزيفـــــا
وســـــاقيا مستهشـــــا علـــــى القلـــــوب خفيفـــــا
أريـــــد منـــــك قميصـــــا وجُبَّـــــةً ونصيفـــــا
أريـــــد مُشْـــــطاً ومُوســـــى أريـــــد سَـــــطْلاً وليفـــــا
يـــــا حبـــــذا أنـــــا ضيفـــــا لكـــــم وأنـــــت مُضيفـــــا
رضيـــــتُ منـــــك بهـــــذا ولـــــم أرد أن أحيقـــــا[٦٥]

قال عيسى بن هشام: فنلته درهماً، وقلت له: قد آذنت بالدعوة وسنعد ونستعد، ونجتهد ونجد، ولك علينا الوعد من بعد، وهذا الدرهم تذكرة معك، فخذ المنقود، وانتظر الموعود، فأخذه وصار إلى رجل آخر ظننت أنه يلقاه بمثل ما لقيني، فقال:

يـــــا فـــــاضلا قـــــد تبـــــدَّى كأنـــــه الغصـــــنُ قـــــدّا
قـــــد اشـــــتهى اللحـــــم ضرســـــى فـــــاجلده بـــــالخبز جلـــــدا
وامنُـــــن علـــــيَّ بشـــــئ واجعلـــــه للوقـــــت نقـــــدا
أطلِـــــق مـــــن اليـــــد خَصْـــــرا واحلُـــــلْ مـــــن الكيـــــس عقـــــدا
واضمُـــــم يديـــــك لأجلـــــى إلـــــى جنـــــاحك عَمْـــــدا[٦٦]

قال عيسى بن هشام: فلما فتق سمعي منه هذا الكلام علمت أن وراءه

---

(٦٥) مقامات بديع الزمان: المغرة: طين أحمر يصبغ به – الخوان بضم الخاء وكسرها المائدة قبل وضع الطعام – جريشا: خشنا – البقل: ما ينبت أوراقا بلا ساق والقطيف: المقطوف – الغريض: الطرى الطازج التقيف: الحامض – السخل: ولد الضأن – التزيف: السكران النصيف: العمامة وغطاء الرأس – أحيف: أظلم.

(٦٦) أطلق من اليد خصرا كناية عن التفرغ والتهيؤ لإجابة الغير وقضاء الطلب اضمم يدك إلى جناحك كناية عن إدناء اليد إلى موضع النقد للأخذ منه وبذله.

﴿ ٥٢٤ ﴾

فضلاً، فتبعته حتى صار إلى أم مثواه، ووقفت منه بحيث لا يرانى وأراه، وأماط السادة لثمهم فإذا زعيمهم أبو الفتح الإسكندرى فنظرت إليه وقلت: ما هذه الحيلة ويحك؟!

فأنشأ يقول:

هذا الزمان مَشُومُ كما تراه غَشُومُ
الحمق فيه مليح والعقل عيب ولُوم
والمال طيف ولكن حَوْلَ اللئام يحوم[٦٧]

فى هذه المقامة تصوير للجماعة الساسانية ووصف لبعض حيلهم وفيها نرى أبا الفتح الإسكندرى بطل المقامات ساسانيا كبيراً وأديباً موهوباً وشاعراً مكروباً ومستجدياً مرهوباً ومحتالاً أريباً.

المقامة الأسدية[٦٨]

حدثنا عيسى بن هشام قال: اتفقت لى حاجة بحمص، فشحذت إليها الحرص، فى صحبة أفراد كنجوم الليل، أحلاس لظهور الخيل[٦٩]، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته، ونستأصل شأفته، ولم نزل نفرى أسنمة النجاد، بتلك الجياد، حتى صرن كالعصى، ورجعن كالقسى وتاح لنا وأدنى سفح جبل، ذى آلاء وأثل كالعذارى يسرحن الضفائر، وينشرن الغدائر، ومالت الهاجرة بنا

(٦٧) أم مثواه: إلى أصل مكان إقامته أو حيث صاحبة منزله - أماط السادة لثمهم: كشفوا وجوههم وأزالوا عنها ما كانوا يسترونها به مشوم: تخفيف مشئوم بمعنى شر وسوء عكس ميمون.

(٦٨) زهر الآداب جـ ٣ ص ٧٥٣.

(٦٩) أى أنهم يلازمونها كتابة عن فروسيتهم وشجاعتهم.

إليها، ونزلنا نغوِّر ونغور وربطنا الأفراس بالأمراس، وملنا مع النعاس، فما راعنا إلا صهيل الخيل، ونظرت إلى فرسى، وقد أرهف أذنيه، وطمح بعينيه، يجذ قوى الحبل بمشافره، ويخُدُّ خد الأرض بحوافره، ثم اضطربت الخيل، فتقطعت الحبال(٧٠)، وأخذت نحو الجبال، وطار كل واحد منا إلى سلاحه، فإذا الموت فى فروة الأسد قد طلع من غابه، منتفخاً فى إهابه، كاشراً عن أنيابه، بطرف قد ملئ صلفاً، وأنف قد حشى أنفاً، وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرعب، وقلنا: خطب ملم، وحادث مهم، وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتى:

أخضر الجلدة فى بيت العرب يملأ الدلو إلى عَقْد الكَرَب

بقلب ساقه قدر، وسيف كله أثر، وملكته سورة الأسد، فخانته أرض قدمه، حتى سقط ليده وفمه، وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه، ودعا الحين أخاه، بمثل ما دعاه، فصار إليه، وعقل الرعب يديه، فأخذ أرضه وافترش الليث صدره، ولكنى رميته بعمامتى وشغلت فمه، حتى حقنت دمه، وقام الفتى فوجأ بطنه، حتى هلك الفتى من خوفه، والأسد للوجأة فى جوفه، ونهضنا فى أثر الخيل، فتألفنا منها ما ثبت، وتركنا ما أفلت، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه:

فلما حثونا الترب فوق رفيقنا جزعنا، ولكن أى ساعة مجزع!!

وعدنا إلى الفلاة فهبطنا أرضها، وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد، ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاد، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع وخفنا القاتلين الظمأ والجوع، عنَّ لنا فارس فصمَدنا صَمْده، وقصدنا قصده، ولما بلغنا نزل عن حاذ فرسه ينقش الأرض بشفتيه، ويلقى التراب بيديه، وعمدنى من بين

(٧٠) فى رواية الحصرى: فأرسلت الأبوال وقطعت الحبال.

الجماعة، فقبل ركابى، وتحرَّم بثيابى ونظرت فإذا وجه يبرق برق العارض المتهلل، وفرس متى ما ترق العين فيه تسهل، وعارض قد اخضر، وشارب قد طُرَ، وساعد ملآن، وقضيب ريان، ونجار تركى، وزى ملكى، فقلت: ما جاء بك؟ لا أبالك! فقال: أنا عبد بعض الملوك هَمَّ من قتلى بهَمّ، فهمت على وجهى إلى حيث ترانى، وشهدت شواهدُ حاله، على صدق مقاله، ثم قال: أنا اليوم عبدك، ومالى مالك فقلت: بشرى لك وبك، أداك سيرك إلى فناء رحب، وعيش رطب، وهنأتنى الجماعة، بحسب الاستطاعة، وجعل ينظر فتقتلنا ألحاظه، وينطق فتفتتننا ألفاظه، والنفس تناجينى فيه بالمحظور، والشيطان من وراء الغرور، فقال: يا سادة إن فى سفح هذا الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء[٧١]، فخذوا من هنالك الماء، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركبت الجنادب العيدان، فقال: ألا تقبلون فى هذا الظل الرحب، على هذا الماء العذب، فقلنا أنت وذاك، فنزل عن فرسه، ونحى منطقته، وحل قرطقته[٧٢]، فما استترعنا إلا بغلالة تتم على بدنه، فما شككنا أنه خاصم الولدان ففارق الجنان، وهرب من رضوان، وعمد إلى السروج فحطها، وإلى الأفراس فحشها[٧٣]، وإلى الأمكنة ففرشها، وقد حارت البصائر فيه، ووقعت الأبصار عليه، ووتد كل مناشبقاً، وخنث اللفظ ملقا، وقلت: يا فتى، ما ألطفك فى الخدمة، وأحسنك فى الجملة، فالويل لمن فارقته، وطوبى لمن رافقته، فكيف نشكر الله على النعمة بك؟! فقال: ما سترونه أكثر، أتعجبكم خفتى فى الخدمة فكيف لو رأيتمون فى الرفقة؟ أريكم من حذقى ظرفا،

(٧١) ليس بها ماء.
(٧٢) ضرب من الكساء.
(٧٣) قدم لها الحشيش.

لتزدادوا بى شغفا.

فقلنا: هات، فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره، وفوق سهما فرماه فى السماء، وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء، وقال: سأريكم نوعا آخر ثم عمد إلى كنانتى فأخذها، وإلى فرسى فعلاه، ورمى أحدنا بسهم أثبته فى صدره، وآخر طيره من ظهره، فقلت: ويحك ما تصنع؟! قال: اسكت يالكع، والله ليشدن كل منكم يد رفيقه، أو لأغصنه بريقه، فلم ندر ما نصنع، وأفراسنا مربوطة، وسروجنا محطوطة، وأسلحتنا بعيدة، وهو راكب ونحن رجّالة، والقوس فى يده يرشق بها الظهور، ويمشق بها البطون والصدور وحين رأينا منه الجدّ، أخذنا القِدّ، فشد بعضنا بعضا، وبقيت وحدى لا أجد من يشدنى، فقال: أخرج بإهابك عن ثيابك ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر ويقول: أقمت قضيبك، فخذ نصيبك، ونزع ثيابه، وصار إلى وعلى خفان جديدان فقال اخلعهما لا أم لك. فقلت: هذا خف لبسته رطباً، فليس يمكننى خلعه، فقال: على نزعه، ثم دنا لينزع الخف، ومددت يدى إلى سكين فيه وهو مشغول فأثبته فى بطنه، وأبنته من متنه، فما زاد على فم فغره، وألقمه حجره، وقمت إلى أصحابى فحللت أيديهم، وتوزعنا سلب المقتولين، وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه، وصار إلى رمسه، وصرنا إلى الطريق فوردنا حمص بعد ليال، فلما انتهينا إلى فُرْضَة من سوقها رأينا رجلاً قد قام على رأس ابن وبنية، بجراب وعُصَيَّة وهو يقول:

رحم الله من حشا ... فى جرابى مكارمه
رحم الله من رثى ... لسعيد وفاطمه
إنه خادم لكم ... وهى لا شك خادمه

﴿ ٥٢٨ ﴾

قال عيسى بن هشام: فقلت: إن هذا الرجل هو الإسكندرى الذى سمعت به، وسألت عنه، فإذا هو هو فدلفت إليه...

المقامة القريضية(٧٤)

حدثنا عيسى بن هشام قال: طرحتنى النوى مطارحها، حتى إذا وطئت جرجان الأقصى، فاستظهرت على الأيام بضياع، أجلت فيها يد العمارة، وأموال وقفتها على التجارة، وحانوت جعلته مثابة، ورفقة اتخذتهم صحابة وجعلت للدار حاشيتى النهار، والحانوت ما بينهما، فجلسنا يوماً نتذاكر الشعر والشعراء، وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد، ينصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجر الجدل فينا ذيله، قال: أصبتم عُذَيقه، ووافيتم جُذَيله، ولو شئت للفظت فأفضت، ولو أردت لسردت، ولجلوت الحق فى معرض بيان يسمع الصم، وينزل العصم، فقلت: يا فاضل، ادن، فقد منّيت، وهات فقد أثنيت، فدنا وقال: سلونى أجبكم، واستمعوا أعجبكم. قلنا: فما تقول فى امرئ القيس؟ قال: هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتدى والطير فى وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسبا، ولم يجد القول راغباً، ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه، قلنا: وما تقول فى النابغة؟ قال: ينسب إذا عشق، ويتلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، فلا يرمى إلا صائبا... قلنا: فما تقول فى طرفة؟ قال: هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافى ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تطلق عتاق خزائنه.

قلنا: فما تقول فى زهير؟ قال: يذيب الشعر والشعر يذيبه، ويدعو

(٧٤) زهر الآداب جـ ٣ ص ٦٥٣.

القول والسحر يجيبه... قلنا: فما تقول فى جرير والفرزدق؟ وأيهما أسبق؟ قال: جرير أرق شعراً، وأغزر غزراً، والفرزدق أمتن صخراً، وأكثر فخراً، وجرير أوجع هجوا، وأشرف يوماً، والفرزدق أكثر روما، وأكثر قوماً، وجرير إذا نسب أشجى، وإذا ثلب أردى، وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا افتخر أجزى، وإذا وصف أوفى، وإذا احتقر أزرى.

قلنا: فما تقول فى المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال: المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر فى المعانى حظا، والمتأخرون ألطف صنعاً، وأرق نسجاً... قلنا: فلو أريت من أشعارك، ورويت من أخبارك،

قال: خذها فى معرض واحد وأنشد:

أما ترونى أتغشى طِمرا ... ملتحفا فى الضر أمرا إمرا
منطويا على الليالى غِمرا ... ملاقيا منها صروفا حمرا
أقصى أمانىّ طلوع الشعرى ... فقد عنينا بالأمانى دهرا
وكان هذا الحُرُّ أعلى قدرا ... وماء هذا الوجه أغلى سعرا
ضربت للسَّرو قبابا خضرا ... فى دار دارا وإيوان كسرى
فانقلب الدهر لبطن ظهرا ... وعاد عُرف العيش عندى نُكرا
لم يُبق من وفرى إلا ذكرا ... ثم إلى اليوم هلم جرا
لولا عجوز لى بسُرَّ مَنْ رَا ... وأفرخ دون جبال بصرى
قد جلب الدهر إليهم شرا ... قتلت يا سادة نفسى صبرا

قال عيسى بن هشام: فنلته ماتاح، وأعرض عنا فراح، وجعلت أنفيه وأثبته، وأنكره وكأنى أعرفه، ثم دلتنى عليه ثناياه، فقلت: الإسكندرى والله، فلقد كان فارقنا خشفا، ووافانا جلفا ونهضت على إثره، وقبضت على خصره، وقلت: ألست أبا الفتح؟! ألم تكن فينا وليدا، ولبثت فينا من عمرك سنين؟ فأى

﴿ ٥٣٠ ﴾

عجوز لك بسر من رأى فضحك وقال:

ويحـــك هـــذا الزمـــان زور ❖ لا يغرنـــــك الغـــــرور
غـــرّق وبـــرّق وكـــل وطـــرّق ❖ واســرق وطلبــق لمـــن تـــزور
لا تلـــــتزم حالـــــة ولكـــــن ❖ دُر لليـــالى كمـــا تـــدور(٧٥)

ومن المقامة الجاحظية:

جاء على لسان أبى الفتح الإسكندرى: يا قوم، لكل عمل رجال، ولكل مقام مقال، ولكل دار سكان، ولكل زمان جاحظ، ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم، فكل كشّر له عن ناب الإنكار، وشم بأنف الإكبار وضحكت إليه، لأجلب ما لديه، وقلت: أفدنا وزدنا فقال: إن الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف، وفى الآخر يقف، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره، فهل ترون للجاحظ شعراً رائعاً؟ قلنا: لا، قال: فهلموا إلى كلامه، فهو بعيد الإشارات، قريب العبارات، قليل الاستعارات، منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله، فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة، أو لفظة غير مصنوعة؟ فقلت: لا.... الخ....

ومن المقامة النيسابورية:

هذا الوصف لقاض فاسد جاء فيه:

«هذا سوس لا يقع إلا فى صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكردى لا يغير إلا على

(٧٥) الحانوت مكان الخمار – مثابة: مكان يرجع إليه كلما أراد – عُذيقة: مصغر عذق وأصله النخلة بحملها – نلته: أعطيته، ماتاح: ماتهيأ وكان حاضراً عندى – الخشف بالكسر ولد الظبية والجلف الغليظ الجافى.

الضعاف، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين العهود والشهود، وقد لبس دنيّته، وخلع دينيته، وسوى طيلسانه، وحرف يده ولسانه، وقصر سباله، وأطال حباله، وأبدى شقاشقه، وغطى مخارقه، وبيض لحيته وسود صحيفته، وأظهر ورعه، وستر طمعه....».

ومن المقامة الوعظية:

«أيها الناس! إنكم لم تتركوا سدى، وإن مع اليوم غدا، وإنكم واردوا هوة، فأعدوا لها ما استطعتم من قوة، وإن بعد المعاش معادا، فأعدوا له زاد، ألا لا عذر فقد بينت لكم المحجة، وأخذت عليكم الحجة، من السماء بالخبر، ومن الأرض بالعبر، ألا وإن الذى بدأ الخلق عليما، يحيى العظام رميما، ألا وإن الدنيا دار جهاز وقنطرة جواز، من عبرها سلم، ومن عمرها ندم....».

المقامة العلمية:

حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت فى بعض مطارح الغربة مجتازاً فإذا أنا برجل يقول لآخر: بم أدركت العلم؟ وهو يجيبه، قال: طلبته فوجدته بعيد المرام، لا يصاد بالسهام، ولا يقسم بالأزلام، ولا يرى فى المنام، ولا يضبط باللجام، ولا يورث عن الأعمام، ولا يستعار من الكرام، فتوسلت إليه بافتراس المدر، واستناد الحجر، ورد الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، فوجدته شيئاً لا يصلح إلا للغرس، ولا يغرس إلا فى النفس، وصيدا لا يقع إلا فى الندر، ولا ينشب إلا فى الصدر، وطائراً لا يخدعه إلا قنص اللفظ، ولا يعلقه إلا شرك الحفظ فحملته على الروح، وحبسته على العين، وأنفقت من العيش وخزنت فى القلب، وحررت بالدرس، واسترحت من النظر إلى التحقيق، ومن التحقيق إلى

التعليق، واستعنت على ذلك بالتوفيق فسمعت من الكلام ما فتق السمع، ووصل إلى القلب، وغلغل فى الصدر، فقلت يا فتى ومن أين مطلع هذه الشمس؟ فجعل يقول:

إســـــكندرية دارى لـــــو قـــــر بهـــــا قـــــرارى
لكـــــن بالشـــــام ليلـــــى وفـــــى العـــــراق نهـــــارى

ومن مقامته الدينارية:

اتفق لعيسى بن هشام أن يفكر فى التصدق بدينار على أشحذ رجل فى بغداد، وذكر له اسم أبى الفتح الإسكندرى فمضى إليه فوجده فى رفقة، قد اجتمعت فى حلقة، فقال: يا بنى ساسان، أيكم أعرف بسلعته، وأشحذ فى صنعته فأعطيه هذا الدينار؟ فقال الإسكندرى: أنا، وقال الآخر من الجماعة: لا، بل أنا، ثم تناقشا وتهارشا فقال عيسى بن هشام: ليشتم كل منكم صاحبه فمن غلب سلب، ومن عز بز، فقال الإسكندرى يهجو صاحبه: «يا برد العجوز، يا كربة تموز، يا وسخ الكوز، يا درهما لا يجوز، يا فسوة التتين، يا خجلة العنين، يا حديث المغنين، يا سنة البوس (البؤس) يا ضرطة العروس، يا كوكب النحوس، يا وطأة الكابوس، يا تخمة الرءوس، يا أم حُبَين (دويبة كريهة المنظر) يا رمد العين، يا غداة البين (الفراق) يا فراق المحبين، يا ساعة الحين (الهلاك) يا مقتل الحسين، يا ثقل الدين، يا سمة الشين (القبح) يا بريد الشوم، يا طريد اللوم، يا ثريد الثوم، يا دية الزقوم، يا منع الماعون، يا سنة الطاعون، يا بغى العبيد يا آية الوعيد، يا كلام المعيد، يا أقبح من حتى فى مواضع شتى، يا دودة الكنيف، يا فروة الصيف، يا تنحنح المضيف إذا كسر الرغيف، يا جشأ المخمور، يا نكهة الصقور، يا وتد الدور، يا خزونة القدور، يا أربعاء لا تدور، يا طمع المقمور، يا ضجر اللسان، يا بول الخصيان، يا مؤاكلة العميان،

يا شفاعة العريان، يا سبت الصبيان، يا كتاب التعازى، يا قرارة المخازى، يا بخل الأهوازى يا فضول الرازى، والله لو وضعت إحدى رجليك على «أروند» والأخرى على «دماوند» وأخذت بيدك قوس قزح، وندفت الغيم فى جباب الملائكة ما كنت إلا حلاجاً...».

وقال الآخر:

«يا قراد القرود، يا لبود اليهود، يا نكهة الأسود، يا فسوة السود، يا ضرطة فى السجود، يا عدما فى وجود، يا كلبا فى الهراش يا قردا فى الفراش، يا قرعية بماش، يا أقل من لاش، يا دخان النفط، يا صنان الأبط، يا زوال الملك، يا هلاك الهلك، يا أخبث ممن باء بذل الطلاق، ومنع الصداق، يا وحل الطريق، يا ماء على الريق، يا محرك العظم، يا معجل الهضم، يا قلح الأسنان، يا وسخ الآذان، يا أَجرَّ مِن قَلْس (الحبل يجربه المركب) يا أقل من فَلْس يا أفضح من عبرة، يا أبغى من إبرة، يا مهب الخف، يا مدرجة الأكف، يا كلمة ليت، يا وكف البيت، يا كيت وكيت، والله لو وضعت إستك على النجوم، ودليت رجليك فى التخوم واتخذت الشِّعرى خفا، والثريا رفا، وجعلت السماء منوالا وحكت الهواء سِرْبا لا، فسديته بالنسر الطائر، وألحمته بالفلك الدائر ما كنت إلا حائكاً...».

المقامة الأهوازية:

وهى فى الوعظ الدينى، وتمضى على هذا النحو:

حدثنا عيسى ابن هشام قال: كنت فى الأهواز فى رفقه متى ما ترق العين فيهم تسهل. ليس منا إلا أمرد بكر الآمال بض الجمال، أو مختط حسن الإقبال، مرجو الأيام والليالى، فأفضنا فى العشرة كيف نضع قواعدها والأخوة كيف

نحكم معاقدها والسرور فى أى وقت نتعاطاه، والأنس كيف نتهاداه، وفائت الحظ كيف نتلافاه،والشراب من أين نخلصه، والمجلس كيف نرتبه؟ فقال أحدنا: على البيت والمنزل، وقال آخر: على الشراب والنقل، وقال بعضنا: إلى السماع والجماع، وقمنا نجر أذيال الفسوق، حتى انسلخنا من السوق، واستقبلنا رجل فى طمرين، فى يمناه عكازة، وعلى كتفه جنازة، فتطيرنا لما رأينا الجنازة، وأعرضنا عنها صفحا، وطوينا دونها كشحاً، فصاح بنا صيحة كادت الأرض لها تنفطر والنجوم تتكدر وقال: لترونها صغرا، ولتركبنها قسرا، ما لكم تكرهون مطية ركبها أسلافكم، وسير كبها أخلافكم، وتتقذرون سريراً وطئه آباؤكم وسيطؤه أبناؤكم؟ أما والله لتحملن على هذه العيدان، إلى تلكم الديدان، ولتنقلن بهذه الجياد، إلى تلكم الوهاد، ويحكم تطيرون، كأنكم مخيرون، وتتكرهون كأنكم منزهون، هل تنفع هذه الطيرة يا فجرة؟ قال عيسى ابن هشام: فقد نقض علينا ما كنا عقدناه، وأبطلنا ما كنا أردناه، فملنا إليه، وقلنا: ما أحوجنا إلى وعظك، وأعشقنا للفظك، ولو شئت لزدت قال: إن وراءكم موارد أنتم واردوها، وقد سرتم إليها عشرين حجة

وإن امرءا قد سار عشرين حجة ❖ إلى منهل من ورده لقريب

وفوقكم من يعلم أسراركم، ولو شاء هتك أستاركم، يعاملكم فى الدنيا بحلم، ويقضى عليكم فى الآخرة بعلم، فليكن الموت منكم على ذكر، لئلا تأتوا بنكر، فإنكم متى استشعر تموه لم تجمحوا، ومتى ذكرتموه لم تمزحوا، وإن نسيتموه فهو ذاكركم، وإن نمتم عنه فهو ثائركم، وإن كرهتموه فهو زائركم، قلنا: فما حاجتك؟ قال: هى أطول من أن تحد، وأكثر من أن تعد، قلنا: فسانح الوقت؟ قال: رد فائت العمر، ودفع نازل الأمر، قلنا: ما إلى ذلك سبيل، ولكن لك ما شئت من متاع الدنيا وزخرفها، قال: لا حاجة لى فيها...

الفصل الثالث

«المقامات بعد البديع»

لقد كان البديع بحق فارس الحلبة فى ميدان فن المقامة فأتى منها بكل عجيب وبديع وآثاره الباقية منها خير دليل وبرهان على أنه «بديع الزمان» كما أطلق عليه معاصروه.

وفى الفترة الممتدة من البديع إلى الحريرى زاول إنشاء المقامات جماعة من الكتاب والأدباء نذكر منهم أبا نصر عبد العزيز بن عمر المشهور بابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥هـ إذ تنسب إليه مقامة ذكر «بروكلمان» أنها ما زالت مخطوطة فى «برلين» تحت رقم ٨٥٣٦[٧٦] وذكر بعض الباحثين أن له مقامات لكنها لم تشتهر ولم يبلغ فيها شأو البديع[٧٧].

ويرى بعض الباحثين أن المقامة المنسوبة إلى ابن نباتة السعدى إنما هى لأديب مغربى أو أندلسى من القرن السادس الهجرى ولا يصح فى الأذهان أن تكون من إنشاء ابن نباتة السعدى الذى ينتمى إلى القرن الرابع الهجرى... والباحث يبنى رأيه هذا على أساس أنه اطلع على نسخة مصورة من هذه المقامة[٧٨]. غير أنه يعود فيقول: «ولو صحت نسبة هذه المقامة

(٧٦) تاريخ الأدب العربى جـ ٢ ص ١١٦.

(٧٧) إبراهيم على أبو خشب تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى ص ٥٣٢ ط الفكر العربى.

(٧٨) حسن عباس: نشأة المقامة فى الأدب العربى ص ٧٢ وما بعدها ط دار المعارف.

أو غيرها إلى ابن نباتة لكان أولى من البديع بريادة الكتابة المقامية إذ كان أسن من صاحبه بإحدى وثلاثين سنة ومعنى هذا أن ابن نباتة كان شيخاً فى الخمسين حين كان بديع الزمان يافعا لم يناهز العشرين من عمره ولم تكتمل فى يديه آلة الكتابة بعد»(٧٩).

وليس هذا القول بمسلم للباحث على إطلاقه إذ قد تكون النسخة المصورة الثانية التى وصلت إليه بعد أن ضلت فى المرة الأولى طريقها إليه كما يقول ليست هى المقصودة بإشارة «بروكلمان» بل من الممكن تماماً أن تكون لابن نباتة مقامة أو مقامات فقدت كما فقد الكثير غيرها وبقيت الإشارة إليها دليلاً عليها، أما عن القول بريادة ابن نباتة للكتابة المقامية فليس بشئ إذ من الجائز جداً أن يتلقى الشيخ عن الشاب ويأخذ عنه فنا من الفنون إذا كان الشاب سباقاً إلى الإبداع وكان فى عمر الشيخ بقية كافية للتقليد والاحتذاء، وقد كانت وفاة «ابن نباتة السعدى» سنة ٤٠٥ هـ بعد البديع بنحو سبع سنوات.

ولأبى القاسم عبد الله بن محمد المشهور بابن ناقيا المتوفى سنة ٤٨٥هـ مقامات ذكرها العماد الأصفهانى وقال: «وله مقامات أدبية معروفة بين أهل الأدب»(٨٠) ويقول ابن ناقيا فى مقدمته لمقاماته «هذه حكايات أحسنا العبارة فيها، وهذ بنا ألفاظها ومعانيها، وجلوناها فى حلى البلاغة على سامعها وراويها، وقد سلك بعض المتقدمين هذا المذهب فى مثلها رياضة للخاطر وتحديا للقريحة غير ناثل جفيرها للمرمى، ولا رايدا لسوامها عند أحد مرعى، وإنما وسمتها باسم مستعار على عادة الشعراء فى تشبيب القاصد والحكماء فى

(٧٩) نفسه ص ٧٣.

(٨٠) خريدة القصر وجريدة العصر (العراق) جـ ٢ ص ٢٣٨ ط المجمع العلمى العراقى تحقيق محمد بهجة الأثرى.

وضع الحكمة على ألسنة البهائم، وليس ذلك بمحظور، وإنما هو تصرف فى العبارة وراحة من تعب الجد إلى ملح البلاغة»(٨١).

وقد أدار ابن ناقيا مقاماته على بطل واحد هو «اليشكرى» الموسوم عنده بأنه فضولى واغل وارش سارق، ولكنه لم يجعل له راوية واحدا كما عهدنا فى مقامات البديع، بل إن راويته دائماً نكرة لا تعرف إذ أنه يبدأ مقاماته بقوله «حدثنى بعض الفتاك» أو «بعض الشاميين» أو «بعض الأصدقاء» أو «بعض أهل الأدب»... الخ ومعنى ذلك أنه لم يكن هناك من دور للراوية سوى رواية الأحداث، أما البطل فإنه يبدو فى صور متعددة، وأحوال متنوعة حسب كل مقامة ليستوعب قدراً لا بأس به من القضايا والمشكلات فى عصره.

وإذا كان هدف ابن ناقيا من هذه المقامات - كما جاء فى مقدمته - هو شحذ القريحة، ورياضة الفكر والملح والراحة من تعب الجد، إلا أننا نرى لها أهدافاً أخرى تتجاوز ذلك، كما تتجاوز اللغة والأدب والغريب، إلى عرض كثير من الآراء الكلامية والفلسفية والمنطقية، ونحن نتبين ذلك فى مقامته السادسة عن «الدهريين» التى تعد من أقوى مقاماته إذ أجرى على لسان اليشكرى أنماطا من الشكوك وأقوالا مما يتذرع به الملاحدة ومنكرو البعث وهو متلبس بالسكر الشديد وكان دور «المتكلم» إجابته بالحجة والروية وإبطال هذه الآراء الفلسفية فى المعاد والخلق والكون والاعتراض على آى القرآن الكريم(٨٢).

(٨١) مقامات الحنفى وابن ناقيا ص ١٢٣ ط استانبول ١٣٣١هـ.

(٨٢) انظر مقدمة «الجمان، فى تشبيهات القرآن» بتحقيق مصطفى الصاوى الجوينى ط منشأة المعارف ١٩٧٨م.

﴿ ٥٣٨ ﴾

ومما جاء فى هذه المقامة على لسان اليشكرى وقد أظهره فى معرض دهرى سكير ملحد وهو يجادل الراوية «المتكلم»:

«ما تقول فى هذه الكأس؟ - وأجال الماء والخمر فيها - أثابتان معاً، أم بطل أحدهما، أم دخل فى الآخر فلا يجوز أن يبطل أحدهما لأن ها هنا خمرا وماء؟ ولا يدخل كل واحد منهما فى صاحبه فيصير داخلاً فى نفسه، وإنما هما ثابتان، وبالاختلاط وقع التغيير والاستحالة، ولا كون ولا فساد إلا باستحالة، والطبيعة اثنتان إحداهما مستعلية على الكون والفساد والأخرى معرضة الأجزاء لذلك والإنسان مركب منهما وهو يحيا بالنفس النامية وينتقل بالنفس المتحركة ويعلم الأشياء بالنفس المميزة، والنفس فى الأجسام بمنزلة الصورة فى الهيولى وهى المحركة للأجسام وهذه الخمرة محركة للنفس وهى قبس لكل قنس» وينبرى المتكلم للرد على اليشكرى الدهرى والدهرى يجادله وينهى ابن ناقيا مقامته بقوله على لسان الراوية: «فقال دعنى من خرافات المتكلمين وأقاويل المشرعين، ولم يزل يعنينى كفره حتى مال به سكره، فتوسد جانبه الوحشى، إلى العشى، وجعل يفيخ، ولا يريخ، ويرسلهن كسهام الحنايا إلى الرمايا وأقبل الناطور فقال: ما فعل اليشكرى؟ فقلت: بل ما أظن التيس إلا من عبد القيس....».

ولعل هذا الموقف يذكرنا بصنيع بديع الزمان فى مقاماته «المارستانية» حين هاجم «المتكلمين» على لسان بطله المجنون فكان هجومه أشد وأنكى وكان نقده لهم أعنف وأوجع.

وقد أجاد ابن ناقيا وبرع فى مقامته الثانية التى يقوم فيها بطله بدور «نباش قبور» وجعل راويته أحد الفتاك وقد خرج بليل فى سلاحه يعترض

السابلة وأبناء الطريق فوقع نظره على شخص لم ينتظم مثله سلك النظر، حتى وقع فى خاطره أنه من غير البشر فتتبعه خلسة «وإذا به قد اقتحم منازل أهل البلى، وسكان الثرى، لا يرقب فيهم ذمة، ولا يرحم لهم زَمَّة، فجعل يطأ الأجداث ويخترقها، ويستافها وينتشقها، حتى وقع على ضالته، وأدرك دفين ليلته، فرأيت منه العجيب العجاب فى سفى تلك الأحجار والتراب، حتى وصل إلى البائس فى ذلك القصر الدامس فجبذه من ضريحه، ونبذه على صفيحه، فسلب أكفانه، وحطم إرانه...» ويبدو أن حركة «العسس» والطواف أزعجته فعدل بسلبه إلى مئذنة فاعتلاها، ووقف فى الناس خطيباً فذكر وخوف ووعظ واستعطف، حتى تعالى بكاء القوم، فدهش الراوية من فعله، وتبعه فى الطريق إلى أن سأله عما بين فعله وأدبه فبدهه بقوله «لم يخف على فضولك منذ الليلة فما عليك من ذى العيلة» ثم احتج عليه بقول النبى (اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض) فلما صاح فيه الراوية «ويحك يعنى فى استخراج النبات لا فى نبش الأموات» استطال عليه إذ لم يكن أولى منه بالتأويل ومضى عنه وهو ينشد معرضاً به:

أنا ابن عم الليل وابن خاله ... إذا جاد دخلت فى سرباله
ماذا يرينى الليل من أهواله ... لست كمن يجزع من خياله

وهناك أسماء أخرى يتردد ذكرها فى مجال المقامات بعضها يحيط به الشك وبعضها الآخر مؤيدة أخباره باليقين فمن الصنف الأول أبو الإصبع عبد العزيز بن تمام العراقى الذى عده «بروكلمان» من رجال القرن الرابع وذكر أن له مقامات فى الكيمياء عليها شرح لمحمد بن تميم مازال مخطوطاً بدار

﴿ ٥٤٠ ﴾

الكتب المصرية ثم يذكر أن المخطوط يحدد وفاته بسنة ٧٦٢هـ[٨٣] وفى «بديعات الزمان» عن بروكلمان أيضاً أن له مقامة فى البعث[٨٤]. ومنهم أبو الهيجاء الأصبهانى الذى يقول عنه ياقوت[*] إنه كان أديباً فاضلاً شاعراً مجيداً فى النظم والنثر له مقامات أنشأها سنة ٤٩٠هـ ومات سنة (٥٣٠هـ) ومن الصنف الثانى المختار بن الحسن بن عبدون أبو الحسن الطبيب النصرانى المعروف بابن بطلان كان مشوه الخلقة كما يقول عنه ابن العبرى، يرتزق بصناعة الطب وقد ارتحل عن بغداد إلى الموصل وديار بكر ودخل حلب ثم خرج إلى مصر ومنها إلى أنطاكية حيث ترهب بأحد الأديرة وكانت وفاته سنة أربع وأربعين وأربعمائة[٨٥]. ذكروا له من مؤلفاته (دعوة الأطباء) الذى وصفه ابن العبرى بأنه (مقامة ظريفة)[٨٦] وقد نشر هذا الكتاب بعنوان «دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة»[٨٧] ويظهر فيه التأثر بأسلوب المقامات، ويقول مؤلفه فى مقدمته «هذه رسالة دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة» ما أغنى جده، وألهى هزله، صنفها أبو الحسن المختار ابن الحسن بن بطلان للأمير نصر الدولة أبى نصر أحمد بن مروان من أمثال الحكماء وكلام البلغاء ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق طريقته وينقاد المتعلم بسهلها إلى تسهيل غرضه فيقرب عليه تناوله، ويظهر للقارئ فضل الأدباء المهرة، وعجز الممخرقين بهذه الصناعة،....» وينفى بعض الباحثين

(٨٣) بروكلمان تاريخ الأدب العربى جـ ٤ ص ٣٢٦ وما بعدها.
(٨٤) بديعات الزمان لفيكتور الكك ص ١٢٩ ط الكاثوليكية بيروت ١٩٦١م.
(*) معجم الأدباء ٢٧٢/١١.
(٨٥) تاريخ مختصر الدول لابن العبرى ص ٣٣١ ط الكاثوليكية ١٨٩٠م.
(٨٦) نفسه.
(٨٧) المطبعة الخديوية بالإسكندرية ١٩٠١م تصحيح الدكتور بشارة زلزل.

بشدة أن يكون لهذا العمل صلة بكليلة ودمنة ويرى أنه وثيق الصلة بفن المقامات(٨٨).

وذكروا من بين المتأثرين بمقامات البديع أبا العلاء المعرى (٣٦٣ - ٤٤٩هـ) صاحب رسالة الغفران ورسالة «الصاهل والشاحج» وغيرهما ولنا وقفة معه عند الحديث عن تأثير المقامات وفى المغرب والأندلس كان من المتأثرين بمقامات البديع ابن شهيد الأندلسى المتوفى سنة ٤٢٦هـ فى رسالته «التوابع والزوابع» ولنا أيضاً معه حديث وكلام فى حينه. وهناك عبد الرحمن بن فتوح الذى يذكر له ابن بسام فى ذخيرته نصا يبدو فيه تأثره بفن المقامات فى ذكر أحوال الأدب ونقد بعض الأدباء فى مصره وعصره(٨٩). كما يذكر له نصاً آخر يبدو فيه تأثره بالفن المقامى(٩٠).

وهناك ابن شرف القيروانى المتوفى ٤٦٠هـ ومن أشهر أعماله مقامة نقدية طويلة ذكرها ابن بسام وطبعت مرارا(٩١) تشتمل على آراء وأحكام نقدية فى الشعر والشعراء من الجاهلية إلى عصره - يمتاز فيها بالبراعة والاقتدار والذوق الفنى الخاص وطول الباع والتفرد بالإبداع فأنت تراه على سبيل المثال يقول فى مقامته مشيداً بشرف المعنى وأصالته:

«إن من الشعر ما يملأ لفظه المسامع، ويرد على السامع من قعاقع فلا يرعك شماخة مبناه وانظر إلى ما فى سكناه من معناه فإن كان فى البيت ساكن

---

(٨٨) إحسان عباس: ملامح يونانية فى الأدب العربى ص ١٦٧ وما بعدها ط بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٧م.

(٨٩) الذخيرة جـ ١ ص ٧٨٦ وما بعدها.

(٩٠) نفسه.

(٩١) الذخيرة جـ ١٩٦٤ - ٢١١ ونشرها الخانجى ١٩٢٦م محمد كرد على بعنوان مسائل الانتقاد فى رسائل البلغاء لجنة التأليف بالقاهرة ١٩٤٦م ونشرها شارل بلا مع ترجمة إلى الفرنسية. الجزائر ١٩٥٣م.

فتلك المحاسن، وإن كان خالياً فاعدده جسما باليا، وكذلك إذا سمعت ألفاظاً مستعملة، وكلمات مبتذلة، فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما فى أضعافها...»، وتراه لذلك يعيب على امرئ القيس قوله:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلى

ويقول «فما كان أغناه عن الإقرار بهذه، وأشد غفلته عما أدركه من الوصمة به، وذلك أن فيه أعداداً كثيرة النقض والبخس، منها دخوله متطفلاً على من كره دخوله عليه. ومنها قول عنيزة له «لك الويلات» وهذه قولة لا تقال إلا لخسيس ولا يقابل بها رئيس، فإن احتج محتج بأنها كانت أرأس منه قيل له: لم يكن ذلك لأن الرئيسة لا تركب بعيرا يدرج أو يموت إذا ازداد عليه ركوب راكب بل هو بعير فقير حقير، فإن احتج بأنه صبر على القول من أجل أنها معشوقة قيل له: وكيف يكون عاشقاً لها من يقول لها:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

وإنما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقته واطراح سواها كالقيسين فى ليلى ولبنى... ثم أهجن هجنة عليه، وأسخن سخنة لعينية إقراره بإتيان الحبلى والمرضع فأما الحبلى فقد جبل الله النفوس على الزهد فى إتيانها... ولا يميل إلى هذا من له نفس سوقى، دع نفس ملوكى... ثم لم يكفه أن يذكر الحبلى حتى افتقر بالمرضع، وفيها من التلوث بأوضار رضيعها ومن اهتزالها واشتغالها عن إحكام اغتسالها، وقد أخبر أن ذا التمائم المحول متعلق بها... وأخبر أنها ظئر ولدها لا ظئر له ولا مرضع سواها فدل بذلك على أنها حقيرة وقيرة ومثل هذه لا يصبو إليها من له همة، وهذه الصفات كلها تستقذرها نفس الصعلوك والمملوك». ويمضى ابن شرف على هذا النحو فى نقده لسحيم عبد بنى الحسحاس فى قوله:

﴿ ٥٤٣ ﴾

توسدنى كفا وتحنو بمعصم على وترمى رجلها من ورائيا

فينكر صدق هذا البيت ويستكثر على هذا العبد الأسود أن يكون معشوقاً على هذا النحو...

هكذا كان رأى ابن شرف وهكذا عبر عن وجهة نظره وذوقه الخاص فى مثل هذا الشعر وليس هنا مجال مناقشته والرد عليه فيما يقول...

ولابن شرف مقامات أخرى تحدث عنها فى مقدمته التى نشرت مع مقامته النقدية قد تعددت مضامينها ومراميها ويقول «هذه أحاديث صغتها مختلفة الأنواع مؤتلفة فى الأسماع عربيات المواسم، غريبات التراجم، واختلفت فيها أخبار فصيحات الكلام، بديعات النظام، لها مقاصد ظراف وأسانيد طراف، يروق الصغير معناها، والكبير مغزاها»(٩٢). وهو يقرر أنه وضع هذه الأحاديث بعد أن عاين ما وضع القدماء فى وضع «كليلة ودمنة» فأضافوا حكمة إلى الطير الحوائم ونطقوا به على ألسنة الوحش والبهائم وصنيع سهل بن هارون فى كتاب النمر والثعلب الذى نحافيه هذا النحو فجاء بديع المراسلات مليح المكاتبات كما اطلع على بعض ما أنشأ البديع من مقامات تأثر بها وسار على هديها يقول ابن بسام «ولابن شرف مقامات عارض بها البديع فى بابه، وصب فيها على قالبه»(٩٣) وهذه الأحاديث أو المقامات العشرون قد جعل لها ابن شرف بطلا هو ابو الريان الصلت

(٩٢) أعلام الكلام لابن شرف القيروانى ص ١٣ ط أولى الخانجى ١٩٢٦م.

(٩٣) الذخيرة جـ ٤ ص ١٩٦ بيروت دار الثقافة ١٩٧٩م.

ابن السكن بن سلامان يقول عنه «وكان شيخاً هما فى اللسان، وبدراً تما فى البيان، قد بقى أحقاباً ولقى أعقاباً، ثم ألقته إلينا من باديته الأزمات، وأوردته علينا العزمات، فانتحنا من علمه بحراً جارياً، وقدحنا من فهمه زندا واريا، وأدرنا من بره طرفا، واجتنينا من ثمره طرفا، ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل، وغفلة الزمان تهتبل»

ويروى ابن بسام مقامة أخرى لابن شرف فى ذخيرته جعل راويتها شخصاً يدعى «الجرجانى» أما بطلها فهو شخص ضرير وهى تبدأ هكذا: حدثنى الجرجانى قال: كان فتى بجرجان من أبناء الأقيال قد جمع إلى النهاية فى المال الغاية فى الجمال وكان مألفا للأدباء، ومأوى للغرباء، ورزقا للفقراء، فلا يخلو منزله من أهل الإعدام، فإنى لعنده فى بعض الليالى، إذ استؤذن عليه لضرير فقير، فأمر بإكرامه وإطعامه، فلما فرغ من شأنه، استدعاه إلى إيوانه، فدخل علينا رجل شيخ وافر السبال، قد عمه البياض بالكمال، مطموس العينين، مسترخى الحاجبين، قد صلعت هامته، وركعت قامته، وقصرت مسافة خطاه وثقل جسمه على عصاه، فسلم بصوت ضئيل، ودعا بلسان ثقيل، وأقبل يذكر شبابه، ويتذكر أحبابه وينوح على سالف زمانه، ويندب ثقات إخوانه، فرق له الفتى فأدناه، حتى أجلسه على يمناه، وصبره وسلاه، ثم سمرنا إلى وقت النوم، فتفرق سائر القوم، ونام فى مكانه، مراعاة لحق ضيفانه...» وينتبه الراوية من نومه على نبرة لم يعهد مثلها من مضيفه فأرهف السمع ويواصل روايته «فسمعت الأعمى يقول: يا سيدى أنا صرورة وثم ضرورة، وقد طالت الغربة، واضطرتنى العزبة. فقال الفتى له: فما وجدت لضرورتك سواى، ولا لعزبتك حاشاى؟!! قال له: فإن أبيت إلا أن تمنع، فدلنى على ما أصنع. قال له الفتى: أرى لك أن تتسرى. قال ومن للصعلوك بالملوك؟ قال: فتزوج قال:

﴿ ٥٤٥ ﴾

والمحوج كيف يتزوج؟ ويتدخل الراوية ليتلاعب بالشيخ الفاسق وجعل يزين للفتى ما دعاه إليه الشيخ ويقول له: ما سألك الشيخ فى عسير، ولا حملك على خطير، فهلا قضيته فأرضيته؟» ولما سمع الشيخ هذا الكلام تمادى فى مراودة الفتى عن نفسه، إلى أن فطن آخر الأمر، إلى ما وقع فيه من غفلة وشر، فاستبدل بملاطفته وتعلله، التهديد والوعيد «ثم اهتز كأنه نسر مقصوص، أو حمار مرهوص، فقمنا وتركنا جانبه، وجعل يضرب بعصاه ما قاربه، فتركناه وشانه، وأدمنا عيانه، نصعد فيه ونصوب، ونَعجّب ونعجِّب، فلم تزل شقشقته تهدر، وعصاه تتكسر، حتى كلت يداه، وانحلت قواه، ولاح وجه الصباح، وجئنا إليه بالمصباح، فإذا هو كالجدار المهدوم، والخدر المهشوم، قد فارق النفس النمرودية، ومات الميتة الجاهلية، فدفنه الفتى فى أطماره، وسألنا كتمان أخباره، وأَفنّ لعمرى أى أَفن، أن يطمع لخبر هذا فى دفن، بل هو منشور إلى يوم النشور....».

والحقيقة أن ابن شرف فى هذه المقامة كان يلمس ظاهرة حرجة كانت تشيع فى بيئته وعصره دون مبالاة أو استتار فى أوساط الخاصة والعامة على السواء وأعنى بها ظاهرة الميل الجنسى إلى الذكور وإتيانهم كما تؤتى الإناث على سبيل الشذوذ وانتكاس الفطرة وفساد الطبع، ثم إن ابن شرف بعد ذلك وقبل ذلك كان بارعاً فى عرضه لشخصياته وتصوير أحداثه واقتداره على إدارة الحوار بخفة ورشاقة وحيوية بالغة والوصول بالموقف إلى نقطة التأزم لإحداث أكبر قدر من الإثارة حتى آخر لحظة إذ يقضى الضرير الفاسق نحبه إثر أزمة عصبية صرعته وأتت عليه ولم تبق منه سوى وصمة عار لا تواريها القبور إلى يوم النشور.

﴿٥٤٦﴾

ولأبى عبد الله محمد بن مسلم رسالة سماها «طى المراحل» تدور على الحل والترحال والانتقال من مكان إلى مكان والسياحة فى البلدان ووصف أحوالها ورصد مشاهداته فيها وغرائب ما صادفه على أرضها وما عاينه من دورها وقصورها ومساجدها وميادينها ورياضها وبساتينها... وتتلاقى فى «طى المراحل» سمات فنية من الرسائل الإخوانية ومن أدب الرحلة والمشاهدة ومن فن المقامات فى تناسق وائتلاف وتكامل أوصاف يقول ابن بسام فى تقديمه لمقتطفاته: «لم أظفر عند وضعى هذا الديوان بشئ مما له من الإحسان إلا بفصول من رسائل سماها «طى المراحل» سبق فى ميدانها عفوا، وتصرف بين حسنها وإحسانها تصرفاً حلوا...»(٩٤).

ومن سمات المقامات فى «طى المراحل» الحكاية وقص الأحداث وحبك المواقف وتعقيدها وتلمس أسباب الانفراج فيها واستخدام الأسلوب المسجوع ذى الفقر القصار والإيقاع المتتابع، وصياغة شيات من رسائل متنوعة إلى شخصيات مرموقة، فى مناسبات معدودة، ومواقف مشهودة واحتفاؤه بالوصف التصويرى المرسوم بإحسانه وابتداعه، الممتلئ بإشباعه وإمتاعه، وافتتانه فى تخلصه إلى مدائحه المرتجاه، الموصولة بشعوره وهواه...

ولأبى حفص عمر المعروف بابن الشهيد التجيبى مقامة نلمح فيها بعض مظاهر الرسالة والقص على ألسنة الحيوانات والطيور وأدب الرحلات...

وقد جعل مقدمتها عن صناعة الكتابة وما أصابها فى عهده، ثم يبدأ

(٩٤) الذخيرة جـ ٣ ص ٤٢٧.

مع صديق له فقيه رحلة طويلة ممتدة المشاهد والأحداث ومن بين أحداث هذه المقامة الجزء الخاص بالبدوى والديك المسن الهزيل الذى أراد البدوى أن يذبحه لضيوفه لكنه ظل يحاوره ويجادله حتى أقنع صاحبه بحجته فأفلت من قبضته. «وحان وقت الظهيرة، فصفق بجناحيه ثنتين، وصرخ صرختين، واقتدى به المؤذِّنون، وتجمهر المؤذَّنون، حتى إذا قضيت الصلاة استصرخهم فأصرخوه، وتواثبت إليه السادة والوجوه فقال لهم الديك: أيها السادة الملوك فيكم الشاب متع بالشباب، والأشيب نورشيبه مع الكواعب والأتراب، وقد صحبتكم مدة، وسبحت الله تعالى على رءوسكم مراراً عدة، أوقظكم بالأسحار، وأؤذن بالليل والنهار، وقد أحسنت لدجاجكم سفادا، وربيت لكم من الفراريج أعداداً، فالآن حين بلى فى خدمتكم تاجى، أنعى إلى دجاجى وتتحى الشفرة على أوداجى؟! وحين أدركنى الشيخ يمزق لحمى ويطبخ؟ يا للكرام من ذل هذا المقام!

وجعلت دموعه تسفح من دمه، والحزن يطبق على فمه ثم غشى عليه، فاجتمعت البداوة من كل ناحية إليه يضربون وجهه بالماء، ويخلصون له فى الدعاء ثم أفاق من غشيته وأنشد:

عـــلام يقتـــل شـــيخ ... مـــن كـــل ذنـــب بَـــرِئُ
محقـــــق متحـــــرٍّ ... موحِّـــــد سُـــــنِى
هـــل نـــص هـــذا كتـــاب ... أو قـــال هـــذا نبـــى
لا ذنـــب لـــى غـــير أنـــى ... مـــؤذن بـــدوى

فرقت له أنفس القوم وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم ولكن البدوى أخذ فى المخادعة وتطل تارة بأن هذا الديك ذو فخذ وصدرة وتارة بأنه أصابته عليه ضجرة وثالثة لأنه وصى عن أبيه عن جده أن يقرى ضيفه أحسن ما عنده..

﴿٥٤٨﴾

فقال الديك: لا أكذب، الحق طريق مستبين، واتباعه مروءة ودين، أما إنه لعلى خلق عظيم، كريم ابن كريم، غير أنه لؤم فى أمرى وأفرط وغلط ما شاء أن يغلط، أما علم أن هرمات الديوك ليست من مطاعم الملوك، وأنها بالأدوية أشبه منها بالأغذية؟! وأقسم لو اتخذ برمة من فؤاد مهجور ووضعنى من مثله على تنور، لا قضى بى حاجة، ولا عدم منى نُبوًّا وفجاجة وإن له فى بنى مالا يجده فى من طيب المشم ولذة المطعم، والتوليد لأحمر ما يكون من الدم، وأنى كالفروج اسفيدباجا، لمن أراد أن يعدل مزاجا؟ فزكى قوله كل من حوله، لم يألوه تعظيماً، واتخذوه من ذلك اليوم حكيما، وصرف البدوى من ألطافه، ما أحسن به قرى أضيافه، وختم نوبة بره بالرغبة فى بسط عذره، فسمعنا منه، ورحلنا سحرا عنه....».

إنها مقامة متعددة الأغراض يختلط فيها الطابع المقامى بالقصص الحيوانى وأدب الرحلات وتجمع بين أطرافها الرغبة فى الهزل الذى يخرج أحياناً إلى السخرية اللاذعة التى تقوم على إبراز التناقض والتباين الموجودين فى نفوس الناس وطبائع الأشياء(٩٥).

وممن تأثر بفن المقامات فى رسائله أبو محمد بن مالك القرطبى وقد ذكر له ابن بسام رسالة اقتضبها لطولها وساق بعض فصولها ومن هذه الفصول يتضح أنه أنشأها أساساً فى مدح ابن صمادح (٤٤٣ - ٤٨٤هـ) واستمناحه ويبدو أن هذه الرسالة لم تكن خالصة للمديح بل إنها ضمت فصولا نقدية طويلة تناول فيها الشعراء من الجاهلية إلى عصره بأحكام قاسية وأقوال لاذعة يقول ابن بسام «ومد ابن مالك فى رسالته هذه أطناب الإطناب وشن الغارة فيها على عدة شعراء وكتاب من جاهليين ومخضرمين ومحدثين

(٩٥) نشأة المقامة لحسن عباس ص ١١٢.

ومعاصرين، ولو ذكرت من أين استلب واختطف جميع ما وصف وانصرف إلى كل أحد كلامه نثره ونظامه لحصل هو ساكتا، وبقى باهتا»(٩٦).

ومن بين من ذكرت لهم مقامات محمد بن الحسن الطوبى الذى عاش فى صقلية وتولى الإنشاء بها، وكان نحوياً كما كان شاعراً مفلقا وكاتباً مجوداً متفننا فى الرسائل وكان مع ذلك يحترف الطب... يقول عنه القفطى «وله مقامات تزرى بمقامات البديع، وإخوانيات كأنها زهر الربيع»(٩٧).

بعد ذلك كله نقول: إلى أية غاية وصل هؤلاء المقاميون؟ وإلى أى مدى كان جهدهم فى هذا المجال؟ وهل كان لهم أثر بارز بين علمين عظيمين من أعلام فن المقامة؟ أم ترى أن أضواء البديع، ولألاء الحريرى لم يبق لهم أثراً؟ الحقيقة أن هذه المقامات لم تنل شهرة، ولم تصب حظاً من رواج، ولم تحظ بنصيب من تألق، ولم يصل واحد من أصحابها إلى ما وصل إليه البديع خصوبة فى الخيال، وإبداعاً فى الأسلوب، وجمالاً فى اللفظ، وإجادة فى الوصف وروعة فى التصوير، وافتناناً فى التعبير، وتنوعاً فى الموضوع واقتداراً على استخدام فنون البديع، وامتلاكاً لناصية الكلام، وإشاعة لروح الفكاهة والمرح، ووعياً متقدماً بالعناصر القصصية والأساليب الحوارية..... وظل الحال على ذلك إلى أن آن الأوان، وجاد الزمان، وتألق فى سماء الأدب بدر ثان، اقترن اسمه ببديع الزمان، وكان الحريرى أبو محمد القاسم بن على عثمان، الذى أجاد وأفاد، وبكل فن جاد، وبموهبته سما وساد، واخترع وأبدع، وأطرب ولمتع، وأنشأ مقاماته الخمسين التى عارض فيها البديع، فأتى بكل بديع، وفاقه فى الصنعة والتصنيع، وإن كان للسابق فضل سبقه، وميزة تقدمه فى عصره....

(٩٦) الذخيرة جـ ١ ص ٧٥٢.
(٩٧) إنباه الرواة على أنباه النحاة جـ ٣ ص ١٠٧ ط دار الكتب ١٩٥٠ - ١٩٥٥م.

﴿٥٥٠﴾

الفصل الرابع

«مقامات الحريرى»

(أ)

الحريرى:

هو أبو محمد القاسم بن على بن عثمان البصرى ولد عام ٤٤٦هـ بضاحية من ضواحى البصرة تسمى «المشان» ولما شب ذهب إلى البصرة حيث سمع الحديث وقرأ الأدب واللغة وتأدب على علماء زمانه بالبصرة، وما زالت همته تسمو به حتى رفعته إلى مقام الصدارة فى علوم اللغة وآدابها وسرعان ما أصبح بفضل فطنته وذكائه «صاحب الخبر» فى ديوان الخلافة، وقد ظلت هذه الوظيفة له فى حياته ولأعقابه بعد أن مات(٩٨).

وقد عاصر الحريرى من الخلفاء:

القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ)

المقتدى بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧هـ)

المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢هـ)

المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩هـ) وقد أدرك أربع سنوات فقط من خلافة المسترشد بالله لأن الحريرى كانت وفاته عام ٥١٦هـ(٩٩). ببنى حرام من البصرة.

---

(٩٨) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٦ ص ٢٦١.

(٩٩) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضرى الدولة العباسية ٥٧١ - ٦٢٤ ط أولى ١٩١٦ الجمالية مصر.

﴿ ٥٥١ ﴾

وكانت الخلافة فى هذه الفترة «صورة ورمزاً» ولم تكن خلافة حاكمة مقتدرة فظهر استبداد الولاة وحكام الأقاليم وشاعت الفتن والاضطرابات وعم الضنك والفساد وساء الحال بشكل عام. ومما لا شك فيه أن يكون لذلك أثره فى الاتجاهات الفكرية والثقافية والأدبية... وعلى أية حال فقد أكب الحريرى على الدراسات الدينية والعلوم اللغوية والنحوية وبرع فيها وبلغ شأوا بعيداً، كان غزير العلم شديد الذكاء، ميالاً إلى الدعابة، ولعل ما عرف عنه من القبح والدمامة هو الذى ولد فيه ميلا إلى الدعابة فى أعماله وآثاره... فقد كان كما قال ياقوت... قبيحاً، دميم الخلقة، قذرا فى لبسته وهيئته، مبتلى بنتف لحيته(١٠٠)... وكان فى ذكائه مضرب الأمثال يقول ابن الجوزى «إنه فاق أهل زمانه بالذكاء والفطنة» ويقول ياقوت «كان غاية فى الذكاء والفطنة» والحريرى لم يكن فى تمام الاستعداد كبديع الزمان فما كانت ملكته طيعة تواتيه بالإنشاء فى كل آن بل كانت تحرن منه وتستعصى عليه وتخذله فى بعض الأحيان، ولعل ذلك ما كان يقصده الحريرى حين وصف نفسه فى مطلع مقاماته بجمود القريحة، وخمود الفطنة ونضوب الروية، فما كان يقصد من ذلك إلا إلى حران تلك الملكة وتأبيها حين يريدها على الإسماح والانقياد... لقد كانت هذه الملكة تتقطع به فى أحرج الأوقات مما أوقفه موقف التهمة حين أظهر بواكير مقاماته للبغداديين وأرادوا اختياره للتحقق من صدق نسبتها إليه فرمى بالادعاء والانتحال كما ورد فى بعض الروايات... ولقد كان الحريرى يحاول بكل ما أوتى من قوة وجهد مغالبة هذا الخمود بضروب من الرياضة حتى تسلس له ملكته وتنقاد فلقد روى عنه «الشريشى» شارح مقاماته

(١٠٠) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٢٦٢.

﴿ ٥٥٢ ﴾

أنه ألف مقاماته كلها على الركاب وكان يتمشى فى ضفتى دجلة والفرات ويصقل خاطره بنظر الخضرة والمياه... وأيا ما كان الأمر فلقد ساعدته موهبته على النبوغ فى ناحيتين: الناحية الأولى: الأدب شعره ونثره وهو فى هذه الناحية قد ترك مجموعة من الشعر ومجموعة من الرسائل كما ترك أهم مجموعة ألفت فى المقامات... وفى الناحية الثانية: نراه يبرع فى التأليف فى «النحو» ويترك منظومة فيه بعنوان «ملحة الإعراب» وكتاب شرح ملحة الإعراب، ويبدع كتابه القيم المعروف «درة الغواص فى أوهام الخواص»... ويعتبر الحريرى أهم كاتب ظهر فى المشرق وبرع بعد أبى العلاء المعرى وطبقت شهرته الآفاق فى عصره وفى العصور التالية، وتعلق معاصروه ومن بعدهم بآثاره تعلقاً عظيماً ضمن لأعماله البقاء والخلود... وكان الطلاب بعد وفاة الحريرى يقصدون أبناءه الثلاثة عبيد الله، وأبا القاسم عبد الله، وأبا العباس محمد ويأخذون عنهم مقامات أبيهم ويتلقون شروحهم لها وتذليل صعوباتها اللغوية، وما اشتملت عليه من بلاغات العرب فى لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها...

والحريرى صاحب مذهب يلتزم فيه بما لا يلزم من ضروب المحسنات البديعية التى تتساب بين يديه بطواعية عجيبة، وبراعة نادرة، وقدرة بالغة وتستحيل إلى أنماط وأشكال هندسية جديدة كل الجدة مثيرة غاية الإثارة لكنها صعبة بالغة الصعوبة والتعقيد... وهو فى ذلك ينساق وراء مذهب أبى العلاء المعرى فى تصعيبه وتعقيده... ومن يرجع إلى ما اقتبسه العماد الأصبهانى فى خريدته، وياقوت فى معجمه، من رسائله يجد هذه الظاهرة تشيع فيها فلقد رويا له رسالتين غريبتين بناهما على حرف واحد، الأولى على حرفَ السين وتسمى «الرسالة السينية» والثانية بناها على حرف

﴿ ٥٥٣ ﴾

الشين وتسمى «الرسالة الشينية» يقول فى الأولى السينية:

«باسم القدوس أستفتح، وبإسعاده أستنجح، سجية سيدنا يوسف، السلطان سدة سيدنا الإسفهلار. السيد النفيس، سيد الرؤساء، حرست نفسه، واستنارت شمسه، وبسق غرسه، واتسق أنسه، استمالة الجليس، ومساهمة الأنيس، ومواساة السحيق والنسيب، ومساعدة الكسير والسليب...».

ويقول فى الثانية الشينية: شغفى بالشيخ شمس الشعراء، ريش معاشه، وفشا رياشه، وأشرق شهابه، واعشوشبت شعابه، يشاكل شغف المنتشى بالنشوة، والمرتشى بالرشوة، والشادن بشرخ الشباب، والعطشان بشبم الشراب، وشكرى لتجشمه ومشقته وشواهد شفقته يشابه شكر الناشد للمنشد، والمسترشد للمرشد والمستبشر للمبشر....».

ولا شك أن الحريرى قد استحوذ على معاصريه بهذه الطريقة التى اتبعها، وبهذا النهج الذى سلكه، فأثار دهشتهم، واستأثر بإعجابهم، ونال استحسانهم وتقديرهم فى عصر كانت فيه هذه الطريقة هى المثلى وكان فيه هذا المذهب هو الذى يعتد به ويعترف لصاحبه بالتفرد والسبق والإبداع ويلتزم به أصحاب الصنعة إدلالا بمقدرتهم البلاغية، وفصاحتهم الكلامية وموهبتهم الإبداعية... ولكن أية بلاغة تلك، وأية فصاحة وأية موهبة وإبداع؟؟!!

ومع ذلك فإن رسائل الحريرى لم تستوعب كل ألوانه البلاغية ومواهبه الإبداعية... إنما الألوان والمواهب قد استوعبتها مقاماته... تلك التى أتى فيها بالعجائب والغرائب وأثارت حوله موجات عالية من الإعجاب والافتتان...

﴿ ٥٥٤ ﴾

(٢)

مقامات الحريرى:

كما قلت فإن الحريرى خلف للأدب ديوانين لشعره ورسائله ومجموعة المقامات التى طبقت شهرتها الآفاق والتى ركز فيها كل فنه وجهده، وعرض فيها ألوان افتنانه وإبداعه، ونال شهرة مدوية فى عصره وبعد عصره لما كان يقوم به من عناية بآثاره عناية تحيلها إلى ضروب خالصة من الزخرف والوشى الأنيق... وتعتبر مقامات الحريرى أهم نموذج أدبى ظهر فى العصر العباسى يعد نماذج أبى العلاء المعرى فقد استحوذت على النفوس، وشدت الانتباه، وأثارت مشاعر الناس فأشادوا بها وعبروا عن تقديرهم لها، وبالغوا فى وصفها على مر العصور، فهذا هو على بن الحسن المعروف بشميم الحلى المتوفى عام ٦٠١ هـ كان من المعجبين بأنفسهم الذين يرون ألا فضل لمتقدم عليهم... ويقول على بن الحسن هذا «لا أعلم أحدا جاء بما يرضى إلا أن يكون المتنبى فى مديحه، وابن نُباتة فى خطبه، والحريرى فى مقاماته، فهؤلاء لم يقصروا...» وقد أظهر له بعض إخوانه العجب من أنه لم يؤلف مقامات يدحض بها مقامات الحريرى، فيرد عليهم بقوله: «إن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل، وقد عملت مقامات مرتين فلم ترضنى وأعرضت عنها وأهملتها، وما أعلم أن الله خلقنى إلا لأظهر فضل الحريرى...» ولعل من أطرف ما جاء فى هذا المقام ما يروى عن الزمخشرى جار الله أبى القاسم محمود بن عمر صاحب الكشاف المتوفى عام ٥٣٨ هـ حيث يقول[١٠١]:

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته

(١٠١) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى بالمشرق للسباعى بيومى ص ٢٣٦.

﴿ ٥٥٥ ﴾

أن الحريـــرى حـــرى بـــأن نكتـــب بـــالتبر مقاماتـــــه
معجـزة تعجـز كـل الـورى ولو سروا فـى ضـوء مشكاته

ويقول ياقوت: «إن الحريرى أبر بكتاب المقامات على الأوائل وأعجز الأواخر»(١٠٢) ويقول أيضاً «لقد وافق كتاب المقامات للحريرى من السعد ما لم يوافق مثله كتاب عرفته فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة، واتسعت له الألفاظ وانقادت نور البراعة حتى أخذ بأزمتها وملك ربقتها فاختار ألفاظها، وأحسن نسقها، حتى لو ادعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع فى صدره، ولا يرد قوله، ولا يأتى بما يقاربها فضلاً عن أن يأتى بمثلها، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة وبعد الصيت والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر(١٠٣). ويقول ابن خلكان «إن الحريرى رزق الحظوة التامة بعمل المقامات»(١٠٤).

هذه المقامات التى نالت هذه الشهرة ما عددها؟ وما أسباب شهرتها؟؟

يروى الشريشى شارح المقامات أن عددها يبلغ فى مسودات الحريرى مائتى مقامة... لكن الذى يهمنا حقاً هو ذلك العدد الذى وصل إلينا وتداولته أيادى الناس وهو خمسون مقامة... واتفق على عددها المؤرخون، ونبه هو بنفسه عليه فيما تقدم به بين يديها ووصلت إلينا كاملة غير منقوصة لم تعد عليها عوادى الزمان ولم ينتقصها كر الأيام ومر السنين، ولعل السر فى ذلك يرجع إلى عناية الحريرى بها... تلك العناية البالغة التى كان يأخذ بها نفسه ويحملها عليها حملاً بضروب من التأنى والرياضة وحسن التأتى فقد كان يقعد

(١٠٢) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٢٦٢.
(١٠٣) نفسه ص ٢٦٧.
(١٠٤) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٩.

﴿ ٥٥٦ ﴾

لمنتسخيها مقعد المستمع المراجع فتصحح بالمقابلة عليه ويوقع بخطه على كل نسخة بما يفيد التصحيح حتى بلغت جملة ما قرئ عليه سبعمائة نسخة قبل مماته بعامين... ويروى فى ذلك صاحب معجم الأدباء خبراً مؤداه أن جابر ابن هبة الله قرأ على الحريرى سنة ٥١٤هـ هذه المقامات، وأن جابرا قال: كنت أظن أن قوله:

يا أهل ذا المغنى وقيتم شرا ولا لقيتم ما بقيتم ضرا
قد دفع الليل الذى اكفهرا إلى ذراكم شعثا مغبرا

«سغبا معترا» بدلا من «شعثا مغبرا» يقول جابر: فقرأت كما ظننت «سغبا معترا» ففكر ساعة ثم قال: «والله لقد أجدت فى التصحيف فإنه أجود، فرب شعث مغبر غير محتاج والسغب المعتر موضع الحاجة، ولولا أنى قد كتبت خطى إلى هذا اليوم على سبعمائة نسخة قرئت على لغيرت «الشعث» «بالسغب» «والمغبر» بـ «المعتر».....

وأمر آخر كانت له أهميته وكان من دواعى سلامة مقامات الحريرى وحفظها من العبث والانتقاص.... ذلك هو تعلق معاصريه ومن بعدهم من أجيال تعلقا شديدا بمقاماته وتمثل هذا التعلق بصورته الرائعة فى ارتحال المتأدبين إليه لقراءتها عليه، ومن بعده صارت مما يدرس على الشيوخ للتخرج فى الأدب وتمنح على ذلك الإجازات، وقد روعى فى روايتها سلسلة السند إلى صاحبها كما يصنع المحدثون... والشريشى لم يتقدم إلى شرحها إلا بعد أن صحت له روايتها من طرق خمسة كلها متصلة الإسناد... ولقد أقبل العلماء على شرحها إقبالا منقطع النظير، وقد أوصل بعض الباحثين عددهم

﴿ ٥٥٧ ﴾

إلى أكثر من خمسة وعشرين شارحا منهم(١٠٥):

ابن ظفر الصقلى المتوفى سنة ٥٦٥هـ ابن الخشاب المتوفى سنه ٥٦٧هـ ابن الأنبارى المتوفى سنه ٥٧٧ هـ النجد يهى المتوفى سنة ٥٨٤هـ الطرزى المتوفى سنة ٦١٠هـ العكبرى المتوفى سنة ٦١٦هـ صدر الأفاضل المتوفى سنة ٦١٧هـ الشريشى المتوفى ٦١٩هـ الواسطى المتوفى سنة ٦٢٦هـ عبد اللطيف البغدادى المتوفى ٦٣٩هـ.

وقد شرحها بعض هؤلاء الشارحين جملة شروح فابن ظفر له منها المطول والمختصر والتعقيب على ما فيها من الغريب. وللواسطى ثلاثة كذلك أحدها على ترتيب المعجم، والثانى على ترتيب المقامات والثالث على ترتيب آخر كما ذكره ياقوت فى معجم الأدباء. ولم يقف الأمر عند هذا الحد فى اللغة العربية وحدها بل تجاوز هذه الحدود فترجمت مقامات الحريرى إلى الفارسية والتركية والعبرية والسريانية واللاتينية والإنجليزية....

وهكذا ظفرت مقامات الحريرى بالشهرة والانتشار وحظيت بالخلود والإكبار وقضى لها بالرواج والازدهار فى عصر وسم بالإبداع والابتكار...

(٣)

دواعى نشأتها:

بدأ الحريرى كتابة مقاماته بالمقامة الثامنة والأربعين وهى المسماة بالمقامة «الحرامية» كما يقرر ذلك جمهرة الباحثين، ثم أخذ فى كتابة بقية

(١٠٥) أحمد الشعراوى: من حديث الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى ص ٢١٧.

﴿ ٥٥٨ ﴾

المقامات وقد بدأ هذا العمل عام ٤٩٥هـ وانتهى منه عام ٥٠٤هـ(١٠٦).

وقد ذكر الحريرى فى تقديمه لهذه المقامات أنه يحقق بتأليفها رغبة من إشارته حكم، وطاعته غنم(١٠٧).

غير أنه لم يكشف عن حقيقة ذلك المشير المطاع... ولقد ترتب على هذا الإيهام تعدد الأقوال فى تعيينه: فهو الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢هـ) كما يروى الشريشى «أن المستظهر بالله لما أمره بصنعها أخرج كالحافظ على العمال فكان يخرج فى الأبردين يتمشى فى ضفتى دجلة والفرات، ويصقل خاطره بنظر الخضرة والمياه فلم ينقض فصل العمل إلا وقد اجتمع له مائتا مقامة فخلص منها خمسين وأتلف الباقى، وصدر الكتاب، ورفعه إلى السلطان(١٠٨).

وهو السياسى الفارسى المشهور أنو شروان بن خالد أحد وزراء المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩هـ) فى رواية ياقوت وابن خلكان وابن طباطبا(١٠٩). وهو ابن صدقة أحد وزراء المسترشد بالله أيضاً وفق ما رآه ابن خلكان على نسخة من المقامات كتبها الحريرى نفسه وذكر أنه صنعها لوزير آخر للمسترشد يسمى «ابن صدقة». وهو عامل البصرة ووالياها فى بعض ما نقله الشريشى من أقوال... وهو جماعة من أعيان البصرة فى نقل آخر له.

وبعض الباحثين يرفض فكرة صلة ابن صدقة وأنو شروان بتأليفها

(١٠٦) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٢٦٣، ص ٢٨٣.
(١٠٧) مقامات الحريرى شرح الشريشى جـ ١ ص ١١.
(١٠٨) مقامات الحريرى شرح الشريشى جـ ١ ص ١١.
(١٠٩) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٦٤. ط دار صادر بيروت تحقيق إحسان عباس.

ويرى أن ذلك غير صحيح لأن «أنو شروان» إنما ولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريرى، أما ابن صدقة فوليها وهو حى سنة ٥١٢هـ لكن بعد تأليفه لمقاماته بسنوات ثمان(١١٠).

وعلى أية حال فإن للحجج والأدلة دورها فى حسم الخلاف ولكنى مع ذلك أرى أن هذا الاختلاف حول شخصية المشير المطاع إنما هو اختلاف بلا طائل، ولا ثمرة له، ولو كان للأمر أهمية حقاً لما ترك الحريرى هذه الشخصية مجهولة فى متاهة الإبهام ولآثر التصريح بذكرها تكريماً وتنويها بفضلها على الأدب وإيثاراً لما يعقبه التصريح من ثمار مادية وأدبية ودفعاً لأسباب الشك والإيهام وأغلب الظن أنه ألفها استجابة للنزعة الفنية فيه تلك التى تدفع الأديب إلى تسجيل مظاهر الحياة وانفعاله بها فى آثاره الأدبية وإبداعاته الفنية بالإضافة إلى ما كان فيه من طموح يدفعه دفعاً إلى إقامة الحجة والبرهان لمعاصريه على تفوقه الأدبى وارتقائه البيانى لينال بذلك مثالة بين الناس، ويتصدر جماعة الكتاب فى زمانه فسار على منوال البديع فى تأليف مقاماته حيث وجدلها هذا الوقع المثير فى نفوس العامة والخاصة، وما إيهامه فى المقدمة بالمشير المطاع إلا تقليد متبع كان يجرى عليه المؤلفون فى كل مصنفاتهم ومؤلفاتهم إيحاء بالمكانة العلمية والأدبية التى تجعل من صاحبها قبلة الأنظار ومتجه ذوى الحاجات وفى ذلك شهرة وتقدير للكاتب والكتاب.

ولعل ما يعين على فهم ما أوردته من حديث النزعة الفنية التى تدفع أصحابها دفعاً إلى تخليد انفعالاتها وتسجيلها فيما ينتجون من آثار ما ذكره أحد الرواة من أنه سمع الحريرى يقول «أبو زيد السروجى» كان شيخاً شحاذا بليغاً ومكدياً فصيحاً ورد علينا البصرة فوقف يوماً فى مسجد بنى حرام فسلم

(١١٠) شوقى ضيف فى كتابه «المقامة» ص ٤٤ وما بعدها.

﴿ ٥٦٠ ﴾

ثم سأل الناس وكان بعض الولاة حاضرا والمسجد غاص بالفضلاء فأعجبتهم فصاحته، وحسن صياغة كلامه وملاحته وذكر أسر الروم ولده كما ذكرناه فى المقامة «الحرامية» وهى الثامنة والأربعون، قال: واجتمع عندى عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل وسمعت من لطافة عبارته فى تحصيل مراده، وطرافة إشارته فى تسهيل إيراده فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل فى مسجده مثل ما شاهدت وأنه سمع منه فى معنى آخر فصلا أحسن مما سمعت وكان يغير فى كل مسجد زيه وشكله ويظهر فى فنون الحياة فضله، فتعجبوا من جريانه فى ميدانه، وتصرفه فى تلونه وإحسانه، فأنشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات وكانت أول شئ صنعته[١١١]. أضف إلى ذلك أن الساحة الأدبية على عهد الحريرى كانت فى حاجة ماسة إلى عمل أدبى فنى كبير يلفت الأنظار ويثير الانتباه ويعطف القلوب ويحرك النفوس ويهز الشعور والناس ما عتموا يذكرون الهمذانى ومقاماته، كأنما يتحسرون على ما فات، ويتطلعون لعظيم آت، لا سيما أن الأدب «قد ركدت ريحه، وخبت مصابيحه» وأمسى فى حاجة إلى من يوقد شعلته، وينصب منارته، ويعلى رايته، ويقود دفته، ويخوض غماره، ويشق عبابه، ويعلى قدره، ويرفع ذكره... فكان الحريرى بحق هو الفارس المغوار، الذى لا يشق له غبار، وكان بصدق الأديب، صانع البدائع والروائع، وصاحب العجائب والغرائب...

(١١١) الرواية أوردها «النجديهى» فى شرحه للمقامات سماعا من الشيخ الثقة أبى بكر عبد الله بن محمد بن احمد بن النقور البراز ببغداد ونقلها الشريشى عن النجديهى فى شرحه الكبير للمقامات جـ ١ ص ١٠.

﴿ ٥٦١ ﴾

(٤)

الراوية والبطل فى مقامات الحريرى:

بنى الحريرى مقاماته على الرواية والحكاية، وحكاياته تفيض بالحركة والحيوية والمشاهد الحوارية لكننا مع ذلك لا نستطيع أن نطلق عليها تسمية أخرى غير «المقامة» كما أريد لها أن تكون... وقد اتخذ الحريرى لمقاماته شخصيتين محوريتين ترتكز عليهما سائر المقامات كما فعل بديع الزمان: الحارث بن همام راوية وأبا زيد السروجى بطلا مكديا مستجديا... والحارث ابن همام الراوية شخصية مثالية متوازية المواهب والقدرات يتسق فكره السديد مع خلقه الطيب الكريم، وهو كأبى زيد السروجى جواب آفاق يرتحل من مكان إلى مكان ولا يستقر به المقام فى بلد فترة إلا وتنازعه الشوق إلى بلد آخر حتى يلتقى بالبطل أبى زيد السروجى وكثرت أسفاره حتى صار «ابن كل تربة، وأخا كل غربة»[١١٢] ولم تكن أسفاره وتنقلاته التى يلاقى فيها من المشاق ما يلاقى من أجل الكدية والاحتيال على الكسب بل حبا فى الأدب وسعيا وراء أعلامه وطلبا لتحصيله من ينابيعه وأصوله يقول: «لم أكن أقطع واديا، ولا أشهد ناديا إلا لاقتباس الأدب المسلى عن الأشجان، المغلى قيمة الإنسان[١١٣]. وكان حبه للأدب مغروسا فى طبعه «منذ ميطت عنه التمائم، ونيطت به العمائم»[١١٤] وقد كانت هناك أهداف أخرى معنوية يعلن عنها الحارث فى مطالع مقاماته وهى على اختلافها تلتقى فى الشرف والنزاهة

(١١٢) المقامة الثانية والأربعون النجرانية.
(١١٣) نفس المقامة.
(١١٤) المقامة الثانية الحلوانية.

والسمو مثل زيارة بيت الله الحرام أو زيارة قبر الرسول أو الحرص على اكتساب روح الإباء والأخلاق العربية الأصيلة واللسان العربى القويم من معاشرة البدو(١١٥). وقد نصادف أسباباً أخرى قليلة ألجأت الحارث بن همام إلى الهجرة والارتحال كخروجه إلى «نصيبين» هربا من قحط العراق أو هجرة للأهواز بعد أن ذاق فيها الشدة والإعواز، أو قصده «سمر قند» للتجارة... ولكنها مع ذلك سرعان ما تتكشف عن الأهداف الأدبية والغايات العلمية والرغبة القوية فى اقتناص الملح والنوادر وأطايب الحديث وبدائع السمر(١١٦).

وتتسم شخصية الحارث بن همام بالحيوية والفطنة والذكاء وحضور البديهة وقوة البصيرة والحس المرهف الدقيق، والذوق الأدبى الرفيع، والشاعرية الرقيقة الملهمة، التى تدفعه دفعاً إلى إنشاد الشعر على البديهة والارتجال عندما تستثيره المواقف، وتهزه الأحداث، وينشط به الحال، ويحثه المجال على أن يقول ويبدع ويدخل فى محاورات شعرية تؤيده طبيعة مواتيه وتسانده بديهة حاضرة(١١٧).

ويبدو الحارث بن همام أنفا عزيز النفس، شيمته التعفف والترفع عن الدنايا، وبعد الهمة، والصبر على الملمة حتى فى أشد حالات الضنك والعسر، ثم إنه كريم، نقى القلب، طاهر السريرة، لا يميل إلى خداع أو زيف، ولا

---

(١١٥) التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى لجابر قميحة ص ٥٧ مطبعة الشباب الحر بالقاهرة ٨٤ - ١٩٨٥م.

(١١٦) انظر المقامات: التاسعة عشرة النصيبية، والسادسة والعشرين الرقطاء، والثامنة والعشرين «السمرقندية».

(١١٧) انظر المقامة الحادية عشرة «الساوية» والمحاورة الشعرية بينه وبين أبى زيد.

يعرف ملقا أو مداهنة، ولا تفسد طبيعته السوية عقد أو أزمات أو مشكلات أو تناقضات، بل إنه يمثل بحق تلك الشخصية «الحميدة المتوازنة» ولعل الحريرى أراد بها تقديم نموذج أمثل ومثل أعلى لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان كما يرتضيه ويحب أن يراه...

وللحارث بن همام إسهام إيجابى نشط فى بعض المقامات يجعله مشاركاً فى البطولة لأبى زيد بكل اعتبار كما نرى ذلك بوضوح فى المقامة الرابعة والثلاثين «الزبيدية» إذ يتقاسم البطولة مع أبى زيد وابنه، ويشارك بايجابية وفعالية فى صنع المواقف والأحداث... أما أبو زيد السروجى فهو يمثل شخصية عجيبة غريبة تجتمع فيها المتناقضات، وتحار فى أمرها العقول والأفهام، وتختلف بشأنها المقاييس والمعايير، وتختل الموازين أشد اختلال، إنه قلق لا يثبت على حال، ولا يهدأ له بال، ولا سبيل أمامه سوى الكدية والاحتيال، وتجاوز المدى فى المكر والدهاء، وإظهار البراعة والاقتدار فى كل مجال، والتصميم على التفوق والانتصار بكل اعتبار وعلى أى حال.

وهو فى سبيل الكدية والاحتيال يتنكر فى أثواب كثيرة ويستعين بأزياء متعددة بحيث يكون بمقدوره دائماً خداع الناس والتمويه عليهم، وتعليقهم فى شباكه أفراداً وجماعات، ولبراعته فى الخداع وقدرته العجيبة على التمويه لم يسلم من الوقوع فى شراكه أحد من خاصة القوم وعامتهم، من رجال ونساء، من كبار وصغار حتى راويته الهمام الحارث بن همام لم يسلم من الوقوع فريسة خداعه ومكره ودهائه إذ باعه غلاماً حرا على أنه رقيق وجاء حكم القاضى بعتق الغلام بعد أن قبض السروجى ثمنه وكان ما كان(١١٨).

(١١٨) المقامة الرابعة والثلاثون «الزبيدية».

وإذ احتال عليه مرة أخرى وأخذ سيفه على أن يرهنه ويأتى له بطعام لكنه ما لبث أن ركب الناقة، ورفض الصدق والصداقة ومكث ابن همام مليا يترقبه ثم إنه نهض يتعقبه فلم يعثر له على أثر وكان كمن ضيع اللبن فى الصيف فلم يلقه ولم يلق السيف(١١٩).

وقواعد الكدية وأصولها تقضى بأن الغاية تبرر الوسيلة ولذلك فإن أبا زيد السروجى كان لا يتورع عن استخدام ابنه وزوجته فى الخداع والابتزاز، والمرأة وابنها يبالغان فى استخدام أساليب المكر والدهاء والتملق والرياء والتخفى والتنكر فى الأزياء، وافتعال الشجار والخلاف أمام القضاء... الخ.

وهذه هى شخصية بطل مقامات الحريرى أبى زيد السروجى الذى يقول عنه الحارث بن همام: إنه يتلقب فى قوالب الانتساب، ويخبط فى أساليب الاكتساب، فيدعى تارة أنه من آل ساسان، ويعتزى مرة إلى أقيال غسان، ويبرز طوراً فى شعار الشعراء، ويلبس حينا كبر الكبراء، بيد أنه مع تلون حاله، وتبين محاله، يتحلى برواء ورواية، ومداراة ودراية، وبلاغة رائعة، وبديهة مطاوعة، وآداب بارعة، وقدم لأعلام العلوم قارعة، فكان لمحاسن آلاته، يلبس على علاته، ولسعة روايته، يصبى إلى رؤيته، ولخلابة عارضته، يرغب فى معارضته، ولعذوبة إيراده، يسعف بمراده(١٢٠).

لقد أراد الحريرى لشخصية أبى زيد السروجى أن تكون حافلة بالمتناقضات، مهيأة للتقلبات، جامعة للمتنافرات، حاوية للمثيرات، لتكون بذلك معبرة أصدق تعبير عن طبيعة العصر الذى عاش فيه الحريرى بكل ما فيه

(١١٩) المقامة الثالثة والأربعون «البكرية».
(١٢٠) المقامة الثانية «الحلوانية».

من تناقضات وإيجابيات وسلبيات ومذاهب وتيارات، وتفاوت كبير بين الطبقات بكل ما فيه من زندقة وإيمان، وظلم وطغيان وعدل وإحسان، وغنى فاحش، وفقر مدقع، ولهو ومجون، وزهد وتقوى، وجهالة وخرافة، وعلم ومعرفة، وشرور وسيئات وخيرات وحسنات... الخ.

كما أراد لشخصية الحارث بن همام أن تكون مثالاً لشخصيته وتعبيراً عن نفسه، وهيئته، وتجسيماً لطبيعته وصورته. وحول هاتين الشخصيتين انعقد كلام كبير ودار حوار طويل بين العلماء والباحثين بغير ثمرة ودون جدوى تماماً كذلك الكلام الذى أثير حول المشير المطاع الذى من أجله ألف الحريرى مقاماته، وأبدى عجائبه وغرائبه، وأطلق بدائعه وروائعه... يقول ابن خلكان: إن الحريرى عنى بالحارث بن همام نفسه آخذا من الحديث الشريف اسمه «كلكم حارث وكلكم همام» ومعنى الحارث: الكاسب، والهمام الكثير الاهتمام(١٢١).

ويروى عن القفطى والسمعانى والعماد الأصفهانى أن أبا زيد كنية شخص حقيقى اسمه «المطهر بن سلام» كان بصريا نحويا صاحب الحريرى وتخرج به، وروى عنه، وتولى صدارة «المشان» (قرية الحريرى) من بعده إلى أن مات سنة ٥٤٠هـ.

وهو وفق الرواية التى أوردتها عن الحريرى أحد الساسانيين رآه الحريرى بعينيه، وسمع منه بأذنيه، وكان موقفه فى مسجد بنى حرام سبب اتجاهه إلى إنشاء المقامات....

(١٢١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٢٠.

﴿٥٦٦﴾

وما أراه وأطمئن إليه هو أن أبا زيد السروجى ليس إلا كمثيله أبى الفتح الإسكندرى عند بديع الزمان كلاهما من صنع الخيال.... وقد قال الحريرى نفسه عن بطل البديع وراويته «كلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف» كما أنه قد اعترف وأقر بأنه يتلو فى عمله تلو البديع... وبذلك يكون بطله وراويته كبطل البديع وراويته مجهولين نكرتين لا وجود لهما فى غير الخيال(١٢٢).

وعلى الراوية والبطل ترتكز أحداث المقامة، وتدور المواقف والمشاهد، ويجرى الحوار... فالحارث بن همام يستهل المقامة بالحديث عن رحلة قام بها أو بلد نزل به، أو مجلس حل فيه أو جماعة التقى بها. وقد يعبر الحارث بن همام عن حالته النفسية من سعود برفقة، أو اندهاش لرؤية أو حديث، ثم يكون اللقاء المعهود فى كل المقامات بالشخصية المحورية الأولى وهى شخصية البطل أبى زيد السروجى الذى يكون غالباً متنكراً متخفياً فى زى الكدية ومحترفى الاستجداء، على سبيل الخديعة والدهاء...

ويجرى الحريرى على لسانه بدائع الأفكار، وبدائه الخواطر، وروائع الشعر، وغرائب اللغة وأوابدها وشواردها، وغزير علمه، وعجائب معارفه، وخلاصة خبراته وتجاربه، وغاية إمكاناته وطاقاته....

ثم تأتى بعد ذلك مرحلة المواجهة والمكاشفة فيدرك الحارث بن همام أن هذا المتنكر المتخفى فى زى متسول أو واعظ أو ابن سبيل مغترب عن دياره، أو امرأة عجوز، أو عراف أو حجام... إنما هو أبو زيد السروجى الذى قد يفصح بنفسه عن شخصيته فى نهاية مقامته، أو يكون هذا الافصاح بعد

(١٢٢) دائرة المعارف الإسلامية - ترجمة الحريرى، ومادة «مقامة».

سؤال وإلحاح من الحارث بن همام، وقد يهتدى ابن همام بنفسه إلى شخصية السروجى، وقد يتوسل إلى ذلك بسؤال أحد تلاميذ أبى زيد ليعطيه الجواب.

وفى المقامة الثامنة والأربعين «الحرامية» نرى الحارث بن همام يحكى أحداث مقامته بالرواية المباشرة عن أبى زيد السروجى، وفى المقامة الثامنة عشرة السنجارية نرى الحارث بن همام يعلن منذ البداية عن شخصية أبى زيد السروجى باعتباره رفيق رحلة وصاحب سفر فى ركب من بنى نمير، ورفقة أولى خير ومير... ومع هاتين الشخصيتين المحوريتين شخصيات أخرى ثانوية لكنها ضرورية لصنع المواقف وتحريك الأحداث وإثارة الحوار... ومن هذه الشخصيات: زوجة أبى زيد وابنه وهما يلتقيان فى الذكاء والدهاء والبراعة فى التموية والخداع، والتفوق فى الشاعرية والبلاغة والبيان... فالابن صورة مصغرة من أبيه والزوجة تمثل العنصر المناوئ المشاكس لأبى زيد لتحقيق الغاية المشتركة بينهما، وهى لذلك أقوى عارضة وأغزر شاعرية وأفصح بياناً من الابن(١٢٣).

ومن الشخصيات الثانوية القضاة، والولاة، وتلاميذ أبى زيد وهم: بدير - نويرة - قطرب - غشمشم - زغلول - ياسين - عنبسة - حبقة - دغفل - القعقاع....

وهؤلاء التلاميذ أثبتوا كفاءة وجدارة وقدرة على الإجابة الصحيحة بأساليب فصيحة على مطلوبات معضلة عسيرة وهذا تفوق بالغ لا شك فى ذلك لكن مرجعه ومرده إلى الأستاذ المربى والمعلم أبى زيد السروجى...

(١٢٣) التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى ص ٧٥.

﴿ ٥٦٨ ﴾

(٥)

مقامات الحريرى: موضوعها ودلالتها على البيئة والمجتمع:

بنى «الحريرى» مقاماته على الكدية كما فعل «البديع» وجاءت فى العدد خمسين موافقة لما بقى من مقامات «البديع»... أما الموضوعات التى بنى عليها الحريرى مقاماته فهى كتلك التى اختارها البديع وشغل بها بطله من نقد وحوار أدبى وهداية وإرشاد وجدل وحجاج ومعاياة وإلغاز مع ما يتبع ذلك من وصف الأشخاص والمواضع وإخراج البطل فى صور مختلفة من صور الساسانيين الذين انتشروا فى تلك الأزمان، واحتالوا على التكدية والاستجداء باتخاذ مظاهر الوعاظ والعلماء والمفتين والغزاة وأبناء السبيل والأعراب والحواة والقرادة والسحرة والمشعوذة والمتلصصة... وهكذا مما شاع وذاع فى هذه العصور وعكس طابعاً عاماً من ألوان التحلل والانحراف وفساد الأوضاع وسوء الأحوال مما مهد لظهور تيار معاكس يدعو إلى الطهر والصلاح والزهد والتصوف بالوعظ والإرشاد والنصح والتوجيه والتنوير والتبصير... ثم محاولة هؤلاء الساسانيين ارتداء ثياب الوعاظ والعلماء والمفتين... إلى جوار ما تعكسه هذه المقامات من مظاهر الطبقية والاختلال الاقتصادى وما ينجم عن ذلك من شيوع البؤس وانتشار الفقر والحرمان وأساليب الاحتيال والنصب وبذر بذور الحقد والكراهية فى النفوس نتيجة محتومة للثراء الفاحش والرفاهية البالغة واللهو والمتعة من جانب والفقر المدقع والبؤس والحرمان والضنك والشقاء من جانب آخر...

كذلك مما تبرزه هذه المقامات: خفة الروح وشيوع الفكاهة والمرح

والميل إلى المداعبات والمعابثات، ونحو ذلك من الأمور التى اتسم بها العصر، وتعلق بها الناس ووجدوا فيها ما يسعدهم ويسليهم ويرفه عنهم ويعينهم على احتمال أعباء الحياة وهمومها وصروف الأيام ونوائبها، وبالإمكان أن نلحظ فى فكاهة الحريرى ما يمكن أن نطلق عليه ما يعرف فى زماننا باسم «الضحك للضحك» فقد قصد فيها الحريرى إلى الهزل والترفيه، دون قصد إلى تهذيب أو تقويم..

وظاهرة أخرى تعكسها مقامات الحريرى وتشير إليها وأعنى بها ما شاع فى هذا العصر من ميل إلى الألغاز، واختبار الذكاء، وسرعة البديهة فقد ألف الحريرى بعض مقاماته للتحاجى والمطارحة وامتحان الألمعية والمقدرة والبراعة فى المسائل النحوية واللغوية وما شابهها... ومعلوم أن المجالس العلمية فى المساجد والقصور كانت منتشرة بشكل واسع فى هذا العصر، وفى هذه المجالس كانت تطرح المسائل النحوية واللغوية والأدبية والفقهية وغيرها، ويثار جدل كبير حولها وجاءت مقامات الحريرى حافلة بمثل هذه المسائل على نحو مسرف فاق فى إسرافه ما قام به أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران، وتعكس مقامات الحريرى بعض أخلاق الناس عامتهم وخاصتهم وعاداتهم ومعتقداتهم وتعلقهم ببعض الأمور الغيبية من نحو السحر والرقى والتمائم والتعاويذ وما شابه ذلك ففى المقامة التاسعة والثلاثين «العمانية» يصف أبو زيد السروجى تمائمه وتعاويذه بأنها «حرز السفر، عند مسيرهم فى البحر، والجنة من الغم، إذا جاش موج اليم، وبها استعصم نوح من الطوفان، ونجا من معه من الحيوان...».

وفى نفس المقامة يتحدث الحريرى عن أمير عاش سنوات طويلة

﴿ ٥٧٠ ﴾

يبتغي الولد إلى أن حملت زوجته وحان موعد الوضع، واشتد العسر بالزوجة الحامل لكن أبا زيد يخبر علماء الأمير أن لديه (عزيمة الطلق) التي تيسر الولادة، وتتحقق بها السلامة وزيادة، فاهتز الأمير طربا وقال لأبي زيد: «ليهنك منالك، إن صدق مقالك ولم يفل فالك. فاستحضر قلما مبريا، وزبدا بحريا، وزعفرانا قد ديف، في ماء ورد نظيف. فما أن رجع النفس، حتى أحضر ما التمس، فسجد أبو زيد وعفر، وسبح واستغفر، وأبعد الحاضرين ونفر، ثم أخذ القلم واسحنفر وكتب على الزبد بالمزعفر:

أيهذا الجنين إني نصيح ... لك والنصح من شروط الدين
أنت مستعصم بكن كنين ... وقرار من السكون مكين
ما ترى فيه ما يروعك من إل ... ف مداج ولا عدو مبين

ثم إنه طمس المكتوب على غفلة، وتفل عليه مائة تفلة، وشد الزبد في خرقة حرير، بعد ما ضمخها بعبير، وأمر بتعليقها على فخد الماخض، وأن لا تعلق بها يد حائض، فلم يكن إلا كدواق شارب أو فواق حالب، حتى اندلق شخص الولد لخصيصي الزبد، وبقدرة الواحد الصمد، فامتلأ القصر حبوراً، واستطير عميده وعبيده سروراً» وكان أن تشبث به الأمير حينما هم بالرحيل «بعد تجربته بركته، بل أو عز بضمه إلى حزانته، وأن تطلق يده في خزانته»(١٢٤).

والحريري في مقاماته شاهد على عصره، وأحوال أهله، وأخلاقهم وسلوكهم، بمختلف طبقاتهم فأنت تراه يتناول في مقاماته فئات من الناس بعين

(١٢٤) الزبد البحري حجر أبيض معروف يقال إنه يسهل ولادة المرأة الماخض، ديف: سحق، اسحنفر مضى مسرعا وشمر للكتابة، فواق حالب: الزمن بين الحلبتين والمراد الزمن اليسير - حزانته: جماعته وعياله.

فاحصة، وإدراك واع، وخبرة مجرب حصيف، ودراية ناقد بصير... فقد تحدث عن القضاة وضيقهم بالمتقاضين، وسخطهم على عملهم، وسرعة غضبهم وتأففهم، وميلهم عن الحق بعض الميل أو كل الميل تبعاً لحالات الرضا أو السخط، وكيف أنه بالإمكان أن يخدعوا، وأن يغرر بهم وأن يقعوا ضحية الخداع والمكر والدهاء(١٢٥).

كما تحدث الحريرى كذلك عن الحكام والأمراء والولاة غير أنه فى حديثه عنهم كان حذرا محترسا، ولم يكن مهاجماً شرساً، وعذره فى ذلك مفهوم، وأمره معلوم...

وقد أنحى الحريرى باللائمة فى مقاماته على أولئك العلماء الذين لا يفتون إلا بمقابل، ولا يبذلون العلم إلا لمن يبذل لهم أطايب الطعام، وجديد الثياب، وحلو المال، فذلك ما تشتهيه الأنفس، وتفتح له أبواب العلم، وكنوز المعرفة وتنطلق من أجله الألسنة بالفتيا، وكان ذلك حقاً للباذلين. بعد انقراض العلم ودروسه، وأفول أقماره وشموسه(١٢٦).

ووصف الحريرى أحوال الأدباء وما يعانون من شظف العيش وخشونة الحياة، فلم يعد الأدبُ مورد رزق دائم يكفى حاجة صاحبه، ويقى به غوائل الزمن، وتقلبات الدهر، وليس للأدب من قيمة إذا كان صاحبه فقيراً بائساً، وعديماً مفلساً، وحينئذ لا ينفعه أدبه، مهما كان فيضه وسيبه... وفى المقامة الثالثة والأربعين البكرية أقوى دليل على ذلك إذ يدير أبو زيد السروجى حواراً مع بائع من فتيان إحدى القرى بمشهد من الحارث بن همام

(١٢٥) انظر المقامة الأربعين «التبريزية» على سبيل المثال.
(١٢٦) المقامة الخامسة عشرة «الفرضية».

﴿ ٥٧٢ ﴾

وذلك على الوجه الآتى:

أبو زيد : أيباع هذا الرطب بالخطب؟ البائع : لا والله.

أبو زيد : ولا البلح بالملح؟ البائع : كلا والله.

أبو زيد : ولا الثمر بالسمر؟ البائع : هيهات والله.

أبو زيد : ولا العصائد بالقصائد؟ البائع : اسكت عافاك الله.

أبو زيد : ولا الثرائد بالفوائد؟ البائع : أين يذهب بك أرشدك الله؟

أبو زيد : ولا الدقيق بالمعنى الدقيق؟ البائع : عد عن هذا أصلحك الله.

وكما تعكس مقامات الحريرى مظاهر الحياة الاجتماعية فى عصره، نراها أيضاً تعكس مظاهر الحياة الأدبية وما شاع فيها من ضروب التفنن، وأنماط الفصاحة، وألوان البديع، وعرض صنوف من المقدرة الفنية على صوغ الكلام، وتنميق الأساليب. والإتيان منها بكل غريب وعجيب فى معارض «بهلوانية»، وألا عيب «شعبذية» برع فيها الحريرى وبز من سبقه، ولم يلحق به من جاء بعده.....

لقد أولع الشعراء والكتاب والنقاد فى هذا العصر بالتجنيس والتورية والمزاوجة والمطابقة والمقابلة وغير ذلك من المحسنات البديعية والزخارف اللفظية التى حرصوا عليها حرصاً بالغاً، والتزموا بها التزاماً ثابتاً، وقد التقى الذوق الأدبى والذوق النقدى على أن الأسلوب البديعى يشكل المثل الأدبى الأعلى الذى يجب اتباعه والالتزام به لأن الخروج عليه خروج على العرف الفنى المتبع وعدوان على قواعد البلاغة وأسس البيان.

وكما قلت فإن الحريرى كان علما بارزا من أعلام هذا الاتجاه فاق كل

من سبقه من أعلام، ولم يلحق به أحد من بعده على مر الأيام والأعوام، وعلى اختلاف العصور والأجيال.

وكما يقول شوقى ضيف بحق وصدق فإن «مقامة الحريرى تتفوق من هذه الناحية – السجع والبديع – على كل ما خلفته لنا العصور الوسطى فقد انتهى صاحبها من حيث جمال اللفظ إلى القمة، ووقف الأدباء والنقاد أمامه مشدوهين إذ وجدوا فى أسلوبه حيوية نافذة ومرد هذه الحيوية إلى هذا الثوب المتوهج من السجع الذى لا نجد فيه نقصاً، فقد فصله وقطعه ووشاه ذوق رفيع كان يعرف كيف يضع الكلمة بجوار الكلمة، وكيف يشد اللفظة إلى أختها وكأنه عازف قيثار»(١٢٧).

لقد كان الحريرى يحاول جاهدا أن يلائم بين عصره وفنه فقد رأى من سبقه من الأدباء وعلى رأسهم أبو العلاء قد أوغلوا فى عقد مختلفة، فلم يخرج عليهم بل حاول أن يجاريهم ويثبت لمعاصريه تفوقه وإبداعه فى هذه الأنماط البلاغية التى كانت تروق عصره من مثل خطبة عاطلة من النقط أو قطعة شعر حالية به أو رسالة تقرأ من آخرها إلى أولها فتكون نفس الرسالة أو تكون جواباً على الرسالة أو أبيات من الشعر تجرى على نفس المنوال ومن مثل توشيحه مقاماته بالآيات، ومحاسن الكنايات، وترصيعها بالأمثال العربية، واللطائف الأدبية والأحاجى النحوية، والمسائل اللغوية، والفتاوى الفقهية، والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة.

لذلك كله كانت مقامات الحريرى قبلة الأدباء وكعبتهم يتوجهون إليها وينهلون منها، ولا يبلغون مداها، إذ كانت قمة شامخة من قمم الأدب

(١٢٧) المقامة ص ٦٦.

العربى الرفيع...

لقد جاءت مقامات الحريرى خمس عشرة فى الكدية وحدها: ثمان خالصة لها وهى: الكوفية والبرقعيدية والبغدادية والمكية والصورية والتفليسية والمروية والساسانية. وسبع فى التحيل لها وهى: الدمشقية التى ادعى فيها حاجته إلى تكفين ميت، والوبرية التى طلب فيها ناقة ادعى ضلالها والواسطية التى ختل فيها أهل الخان بإطعامهم حلواء مخدرة، والزبيدية التى باع فيها ولده على أنه غلام رقيق والعمانية التى علق فيها «عزيمة الطلق» على حامل لتضع والحرامية التى ادعى فيها أن ابنته فى الأسر وطلب فداءها. وجاءت فيها ست للوعظ هى الصنعانية والساوية والرازية والرملية الأولى والتنيسية والبصرية وأربع فى الوصف الخالص الصريح وهى: الدينارية فى الدينار والسنجارية والكرجية فى الشتاء والبكرية فى البكر والثيب ولا تخلو هذه المقامات الأربع من وصف أشياء غير التى بنيت عليها كما لا تخلو مقامة غيرها من أن يكون فيها وصف وجاء فيها عشر مقامات فى الحوار والمخاصمة وهى: الحلوانية فى محاسن التشبيهات والدمياطية فى المواصلة القطعية والإسكندرانية فى أثاث زوجته وحليها إذ باعه والرحبية فى دعوى القتل على برئ والفراتية فى صناعتى الإنشاء والحساب والشعرية فى دعوى سرقة شعر والصعدية فى عقوق الابن والتبريزية فى نشوز الزوجة والرملية الثانية فى عصيانها والحجرية فى الحجامة... وجاءت فيها تسع فى التكنية والألغاز فمقامات التكنية أربع هى: المعرية فى الكناية عن الإبرة والميل والنصيبية فى الكناية عن بعض ألوان الطعام وما يتعلق به والشيرازية فى الكناية عن الخمر ببكرياها والنجرانية فى الكناية عن أشياء عشرة هى:

المروحة والحابول والقلم والميل والدولاب والمزملة والظفر وطاقة الكبريت وخمر العنب ومعيار الذهب. ومقامات الألغاز خمس وهى: الفرضية فى مسألة توريث والنحوية فى مائة لغز نحوى والطيبية فى مائة لغز فقهى والملطية فى عشرين مقايضة كلامية والشتوية فى خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائية فى كل بيت لغز، والأعجب من ذلك ما جاء فى المقامات الست الباقية من التلاعب بالصناعات اللفظية التى ابتكرها الحريرى وهى المقامة المغربية للعبارات التى تقرأ رداً وطرداً والقهقرية للرسالة التى تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه.

والحيناء للرسالة التى إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة والرقطاء للرسالة التى أحد حروف كلماتها معجم والآخر مهمل والسمرقندية للخطبة العارية من النقط ثم الحلبية لعشر مقطعات من الأبيات أولاها عواطل من النقط والثانية حوال به والثالثة أخياف أى كلمة مهملة وأخرى معجمة والرابعة متائيم كل كلمتين متجانستين جناساً خطياً والخامسة مطرفات أى بطرفى كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين والسادسة لما أشكل من ذوات السين والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد والثامنة لما يجرى عليه هذان الحرفان والتاسعة لعقد هجاء الأفعال الناقصة والعاشرة وهى طويلة لما ورد من الكلمات فيه ظاء.

فهذه هى الفنون المتنوعة والأنماط المختلفة التى كانت أثرا بارزا للبيئة والعصر والتى ينبغى ألا يقف الباحث عند ظواهرها الشكلية بل إن عليه أن يتعمق ما وراءها من أشياء... فلو أنى وقفت عند الظواهر لسمحت لنفسى أن أقول - مع اعترافى بأننى إزاء دراسة موضوعية خالصة - إن هذه

المظاهر والأشكال والزخارف قد تدل على فراغ وجدب أكثر مما تدل على براعة وخصوبة وافتنان فلو أن هذه الجهود وجهت لغايات رشيدة ولو أن هذه العناية بذلت من أجل أهداف عظيمة من شأنها تحقيق نهضة أدبية أو ازدهار فكرى أو بعث حضارى لكان ذلك أجدى وأعظم... أقول ذلك من منطلق خاص قوامه الأهداف البعيدة والغايات المثلى التى لا يقع فيها اختلاف ولا يثور حولها جدال...

ولعل الحريرى كان يشعر فى قراره نفسه بشئ من ذلك فنراه يشير فى مقدمة مقاماته إلى أنه سيغض منها بعض الناس إذ يقول «إنى وإن أغمض لى الفطن المتغابى ونصح عنى المحب المحابى لا أكاد أخلص من غُمر جاهل أو ذى غِمر متجاهل يضع منى لهذا الوضع، ويندد بأنه من مناهى الشرع ومن نقد الأشياء بعين المعقول وأنعم النظر فى مبانى الأصول نظم هذه المقامات فى سلك الإفادات وسلكها مسلك الموضوعات عن العجماوات والجمادات، ولم يسمع بمن نبا سمعه عن تلك الحكايات[١٢٨]...

وواضح أن الحريرى يحتج على صواب عمله بكتاب كليلة ودمنة وأمثاله من القصص التى بنيت على الحيوان فإن أحدا لم يذمها لما فيها من حكم وآداب - وهنا قد يثور سؤال: هل يفهم من كلام الحريرى أنه قصد إلى بث معان أخلاقية فى مقاماته؟؟ والجواب: إن أحداً لا يستطيع أن يقف بالمقامات عند حدودها الشكلية المجردة وأن يسلبها كل مضمون فكرى أو مغزى خلقى أو هدف سلوكى إذ المقامات فى جوهرها مواقف وأحداث وألفاظ وعبارات وصياغة وأسلوب ومضمون وموضوع وحوار وشخصيات

(١٢٨) مقامات الحريرى شرح الشريشى جـ ١ ص ١٨.

وبالتقاء هذه العناصر تبرز أفكار وخواطر وتتلاقى أحاسيس ومشاعر، وتتعانق أهداف وغايات، وتأتلف شواهد ودلالات، وتتناثر رموز وإشارات، وتتجلى آيات بينات، وتأتلق عظات بالغات، وكلمات محكمات، وبذلك كله تتحدد القيمة المثلى للمقامات باعتبارها فنا متعدد المواقع والجبهات متنوع الأغراض والغايات...

ومن الشواهد الدالة على الأهداف الخلقية والسلوكية فى مقامات الحريرى أننا نراه يعرض أبا زيد السروجى واعظا فى عشر مقامات وفى قطع صغيرة من مقامات أخرى يحض على الهدى، ويحث على العمل الصالح، ويحذر من شواغل الدنيا وشهواتها، والارتماء فى أحضانها، والاطمئنان إليها، والاعتماد عليها، والاعتصام بها، والانصراف عن الآخرة ونسيان الجزاء فيها، وإهمال العمل الصالح، انشغالا بالفانية عن الباقية، ثم إن الحريرى يحرص على تقديم بعض دعواته الطيبات الصالحات فى بعض مقاماته مبتهلاً بها إلى الله سائلاً إياه الحفظ والرعاية فى عصر كان الناس فيه يولون وجوهم شطر الدين طامعين فى عفو الله وغفرانه وأن يخلصهم من ظلمات أنفسهم وظلم حكامهم وولاتهم وفساد مجتمعاتهم، وأن ينصرهم على أعدائهم من الصليبيين وغيرهم وأن يهيئ لهم من أمرهم رشدا[١٢٩] إذا أدركنا ذلك استطعنا أن نقدر هذه المواعظ والأدعية فى مقامات الحريرى حق قدرها ونتفهم ما وراءها من غايات وما كان لها من تأثير... يقول الحريرى فى مقدمة مقاماته[١٣٠]: «وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة،

(١٢٩) المقامة ص ٥٦.
(١٣٠) مقدمة مقامات الحريرى شرح الشريشى جـ ١ ص ١٣.

وروية ناضبة، وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها به من الآيات، ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية والأحاجى النحوية، والفتاوى اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهية مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السروجى وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصرى، وما قصدت بالأحماض فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه...».

ومما ينبغى أن أشير إليه فى هذا المقام أن بعض الباحثين ينحى باللائمة على المقامات بأسرها باعتبار أنها قد جاءت مناقضة للفطرة العربية الإسلامية فى أدائها ومضمونها على السواء، ولم تكن تمثل نفسيه العربى الشجاع صاحب المروءة الذى يضحى بكل شئ يملكه فى سبيل رعاية الضيف وحماية الذمار، لأنها أسرفت فى الطابع المادى والاهتمام بالمعدة إذ أن أبا الفتح الإسكندرى بطل مقامات البديع وأبا زيد السروجى بطل مقامات الحريرى كلاهما رجل مكر واحتيال يصطنع جميع المهن لابتزاز الأموال، تراه مرة قرادا يسلى الناس ويعجبهم، ومرة واعظا مزيفا يعظ وينصح ثم تتكشف حيله فإذا هو مهرج، ومرة مشعوذا يحتال على الناس بشعوذته ليفتحوا كيسهم، ويغدقوا عليه من ما لهم، وأبرز معالم الشخصيتين «دناءة النفس» واتخاذ الفصاحة والبلاغة وسيلة للتكدية والسؤال[١٣١].....

(١٣١) أنور الجندى: خصائص الأدب العربى ص ١٨٦ - ط دار الكتاب اللبنانى. وانظر الآداب السلطانية للفخرى ص ١٠.

وأرى أن هذا التحامل على المقامات بهذه الصورة لا مبرر له وأن تناولها بهذا المعيار فيه بعد عن الحقيقة ومجافاة لها إذا أن هؤلاء الباحثين لم يدركوا – فيما يبدو – أن الغاية من عرض هذه النماذج التى ذكروها ليست تمجيد هذه الفئة من البشر، ولا الدعوة إلى الاقتداء بهم، والسير على دربهم، باعتبارهم مثلا عليا، وقدوة صالحة... كلا... إنما الغاية تتمثل فى كشف أساليبهم، وفضح وسائل تحايلهم، وتعرية ما قد يعترى نفوس البشر من دناءة وما قد يعلق بها من زيف أو يغشيها من أردية التمويه وأقنعة الخداع والضلال، وتحذير الناس منهم، ووقايتهم من شرورهم والوقوع فى شراكهم مهما كانت حظوظهم من الدهاء وبلاغة القول وسحر البيان، أما العظة البالغة والحكمة الصائبة والدعوة الطيبة فإننا ننتفع بها ونتلقاها بالقبول مهما كان وضع قائلها ومن أجراها الله على لسانه مخادعا أو غير مخادع.

هذا بالإضافة إلى ما تعرضه هذه النماذج البشرية من طرائف ونوادر وما تثيره من فكاهة ومرح وتسلية وترفيه مما يسرى عن النفوس المثقلة بالهموم والآلام ويخلصها من بعض عنائها ومتاعبها وأشجانها.

كذلك لا ينبغى أن يعزب عن البال أننا إزاء الفنون الأدبية بكافة أنماطها وأشكالها محكومون بمعايير موضوعية خالصة وأسس فنية راسخة لا ينبغى تجاوزها إلى اعتبارات أخرى إذا احتكمنا إليها لكان لزاما علينا تصفية تراثنا الأدبى بأيدينا وبأفكار المتزمتين فاعتبروا يا أولى الأبصار....

﴿ ٥٨٠ ﴾

(٦)

مقامات الحريرى بين الطبع والصنعة ومنزلتها بين القصة والمقالة:

نحا الحريرى فى مقاماته نحوا من الفن المعجب الذى غطى على كل فن قبله، وقطع الطريق على كل فن بعده لكنه مع ذلك يعترف لبديع الزمان بسبقه وإبداعه فيقول: «هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدى بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتى بلاغة قدامة لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته، ولله در القائل:

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

ومع فضل السبق للبديع فإن مقامات الحريرى أبدع فنونا، وأبرع خيالا، وألطف فكاهة، وأكثر أمثالا، وأشمل وعظا، وأبهى رواء، وأقوى أثرا... ولذلك جذبت إليها طلاب اللغة وأعلام الأدب وقناص الشوارد وأرباب الطرف، وأصحاب النوادر والملح وجماعة من جهابذة الشارحين والعلماء المحققين...

لقد بنى الحريرى مقاماته على نفس الأسس والقواعد التى ارتكز عليها البديع لكنه أخرجها فى صورة جديدة، وأبداها فى معارض فريدة، وكساها أردية زاهية عديدة وأضفى عليها حيوية عجيبة، وفرض على نفسه فيها قيودا دقيقة، وأثقلها بالتزامات غريبة، وقطع فى ذلك شوطاً مديداً، وبلغ شأوا بعيداً، وتحول من صفاء الطبع والفطرة إلى أناة الصنعة ثم إلى رواء التصنيع ثم إلى تعقيد التصنع ومتاهاته، فى بعض مقاماته...

لقد رأينا الحريرى يتهيأ بكل طاقته لما ينشئ، ويقعد له، ويستفرغ جهده فيه، ويتكلف لتحقيق أنماط البديع الكلف الصعبة ولذلك بدت أصباغ التأنق على مقاماته وانتثرت حلى البديع فى أرجائها انتثاراً مسرفاً، فالسجع أساس يلتزم به، والجناس غاية يتحين لها الفرص فلا يفلتها من قبضته، ولا يدع من أنواعها نوعاً دون أن يحققه فى نماذجه، وكذلك الطباق والتورية وسائر المحسنات التى تنوعت وتفرعت فى عصره وعند أهل زمانه، ومضى هو فيها إلى أبعد مدى وأخرجها فى صورة جديدة من تصعيب الأداء إما بجلب أشياء غريبة عن دوائر الفن وإما بتعقيد ما يندمج فى هذه الدوائر وإما باستحداث طرق جديدة... ولعل أول ما يلاحظ من ذلك تلك الكنايات العجيبة التى تحيل كثرة من جوانب مقاماته إلى ما يشبه الألغاز... ففى المقامة التاسعة عشرة «النصيبية» نراه يفرط فى استعمال الكنايات على نحو من الإغراب غريب، فهو يكنى عن الموت بأبى يحيى، وعن الجوع بأبى عمرة، وعن الخوان بأبى جامع وعن الخبز الحوارى بأبى نعيم، وعن الجدى بأبى حبيب وعن الخل بأبى ثقيف، وعن الملح بأبى عون، وعن البقل بأبى جميل، وعن السكباج بأم القرى، وعن الهريسة بأم جابر، وعن الفالوذج بأبى العلاء، وعن الطست والإبريق بالمرجفين!!!

وكما يوشح الحريرى مقاماته بهذه الكنايات الغريبة فيعقد أسلوبها نراه يرصعها بالأمثال وقد قال إنه وضع فى المقامة الحجرية وحدها بضعة عشر مثلا(١٣٢). وعنايته بالحكم لا تقل عن عنايته بالأمثال على نحو ما نجد فى المقامة القهقرية، وهناك الأحاجى النحوية التى خصص لها المقامة النحوية

(١٣٢) مقامات الحريرى جـ ٢ ص ٣٧٨.

وعرض فيها طائفة من أحاجى النحو ومشاكله، كما خصص للفقه مقامة سماها المقامة الطيبية ذكر فيها مائة مسألة فقهية... كما نراه يعمد إلى الفتاوى اللغوية من ذكر بعض الاشتقاقات والأبنية وابن خلكان يقرر أنها اشتملت على كثير من كلام العرب من لغاتها(١٣٣).

إن ذلك كله يدل على أن الحريرى كان يبحث عن الوسائل الجديدة التى يوشى بها عمله، ويبهر بها معاصريه لكنه شق على نفسه فى هذا الاتجاه كما شق على الناس فأتعبها وأتعبهم، وأضناها وأضناهم... استمع إليه فى رسالة له وردت بمقامته «الرقطاء» يقول فيها... أخلاق سيدنا تحب، وبعقوته يلب، وقربه تحف، ونأيه تلف، وخلته نسب، وقطيعته نصب، وغربه ذلق، وشهبه تأتلق، وظلفه زان، وقويم نهجه بان، وذهنه قلب وجرب، ونعته شرق وغرب،... معاظم شرفه تألف، وشؤبوب حياته يكف، ونائل يديه فاض، وشح قلبه غاض» إنه يجهد نفسه فى هذه الرسالة ليأتى بكلمات أحد حروف كل كلمة منها معجم والآخر مهمل ولذلك أطلق عليها «الرقطاء»(١٣٤).

وتأمل محاولته الغريبة التى أطلق عليها فى مقامته المغربية «ما لا يستحيل بالانعكاس» ويقصد به أن تقرأ الجملة من أولها كما تقرأ من آخرها عكسا دون أن تتغير حروفها أو معانيها ومثل له بقوله «لم أخامل، كبر رجاء أجر ربك، مَن يَرِبَّ إذا برَّيْنَمْ، سكَّت كلَّ مَن نمَّ لَكَ تَكِس، لُذ بكل مؤمل إذا لـمَّ

(١٣٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٩.

(١٣٤) سميت بذلك لأن حروف كلماتها تتوالى بالتبادل بين الإعجام والإهمال - العقوة الفناء يلب: يلزم - خلة: صداقة - الغرب: السيف - ذلق: حاد - الظلف: العفاف - شؤبوب: أول دفعة من المطر يكف: ينهمر ويقطر.

وملك بذل»[١٣٥] هكذا كل جملة من هذه الجمل تقرأ بشكل ثابت طرداً من أولها وعكسا من آخرها بنفس المعنى وهذا هو كل ما فيها...

وقد نتساءل: وما الفائدة المرجوة من جراء هذا الالتواء والتصعيب والإرهاق؟؟!!

ويأتى الجواب: إنها سمة أهل العصر وطبيعتهم فى عشق هذه الأنماط والأساليب!! وأنه الذوق العام للناس الذى كان يمضى بهم فى هذا الاتجاه، ويفرض على الكتاب والأدباء - وهم المتسببون فى ذلك - أن يكدوا ويحتالوا على إرضاء هذا الذوق بكل وجه ومن أى طريق وبأى أسلوب!!! والحريرى كان يعرف ذلك كله معرفة دقيقة بغير شك ومن أجل ذلك أخذ يغرب على الناس فى مقاماته ويسلك بهم متاهات تحيرهم وتضنيهم، وألحت عليه رغبته تلك حتى استطاع أن يستحدث هذه الطرق الغريبة والأساليب العجيبة والالتواءات المربكة، والتعقيدات المحيرة، والشعبذات المذهلة... التى يرى فيها بعض الباحثين المعاصرين طبيعة وفطرة فيقول «هذا ما نحا إليه الحريرى فى مقاماته من الفن المعجز الذى غطى على كل فن قبله، وقطع الطريق على كل فن بعده، وهو مع هذا بعيد عن التكلف الممقوت[١٣٦].

نحن لا ننكر أن الحريرى ذو موهبة وذكاء بلغا من التألق شأناً كبيراً وكنا نود أن يستغل موهبته وذكاءه فيما هو أجدى وأنفع من الارتقاء بأذواق الجماهير وتقديم أفضل النماذج لها ورفض الرضوخ لما يرضيهم وإن كان ما يرضيهم لا يساوى شيئاً، ولا يجدى نفعاً...

---

(١٣٥) الفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف ص ٣٠٢ وما بعدها.

(١٣٦) السباعى بيومى: تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى ص ٢٣٤.

﴿ ٥٨٤ ﴾

لست أدرى لماذا تلح على دائماً وأنا فى هذا المقام بين يدى الحريرى وبعض مقاماته صورة ذلك «البهلوان» الخفيف النشط، الذكى الفطن، الفكه المرح الذى يعلو ويهبط، ويرتفع وينخفض، و«يتشقلب» فى الفضاء ويلقى بنفسه على الأرض، ويسير على يديه، ويرفع رجليه فى الهواء ثم هو مع ذلك كله قد صبغ خلقته التى سواها الله وأبدعها بشتى الأصباغ والمساحيق فى تنافر قبيح قد يثير فينا شعوراً بالإشفاق قبل أن يثير بواعث المرح والإضحاك... تلك صورة تخطر بذهنى وأنا فى هذا المقام مع الحريرى وبعض مقاماته ولعلى لا أكون فى ذلك متجنيا أو مسرفا مغاليا... فقد رأينا من يشيد بهذه المقامات ويرفعها فوق كل منزلة، ويسمو بها إلى أشرف مكانة كما رأينا أيضا من يحطون من قدرها، وينكرون أى فضل لها، ويصر بأن المقامات البديعية والحريرية تصغر الهمة لأنها بنيت على السؤال والاستجداء والتحيل القبيح(١٣٧)... وأنها ليست فنا أصيلا من فنون الأدب العربى لإغراقها فى الوشى اللفظى والزخرف البديعى ومجافاتها للفطرة العربية الأصيلة(١٣٨) ويؤكد بعض الباحثين هذه الحقيقة فيقرر أن عناية الحريرى المغالية بالتحسين والتزيين أرهقت المعانى فى بعض الأحيان وتركها تنوء بثقل ما تحمل فكانت كسيف من خشب فى قراب من ذهب أو كعروس يأكلها السلال ويعجزها ما تراكم عليها من حلى وأصباغ ولا سيما تلك المقامات التى أغرب فيها بالعبث اللفظى(١٣٩)...

لكن مثل هذا الكلام لا ينبغى أن يؤخذ على إطلاقه فى سائر المقامات

---

(١٣٧) الآداب السلطانية للفخرى ص ١٠.

(١٣٨) خصائص الأدب العربى لأنور الجندى ١٨٦ - ١٨٨.

(١٣٩) من حديث الأدب العربى للشعراوى ص ٢٢١.

بل إنه ينطبق بشكل أو بآخر على بعض منها ويظل باقيها سالما من هذا الوصف بكل اعتبار... فقد شاء الحريرى أن يقصر عقده وشعبذته وأنماطه البهلوانية على مقامات خاصة، وشاء لبقيتها أن تبقى حرة طليقة من هذه القيود والأغلال... والحريرى أديب موهوب يعشق أدبه وفنه ويعرف طريقه إليهما حق المعرفة وقد هيأت له موهبته وقدراته وطاقاته الإبداعية الوصول إلى ذروة سامقة من ذرا الفن العربى الأصيل...

يؤكد ذلك ما يقوله باحث جاد متمكن له شهرته فى البحث ومكانته فى العلم والدرس هو الأستاذ الدكتور شوقى ضيف إذ يقول عن مقامات الحريرى بعد حديث طويل عن التصنع والتكلف والتعقيد والشعوذة... الخ يقول:

«وقد اتخذها الأدباء من عصره إلى عصرنا قبلتهم وكعبتهم فهم ينهلون منها ويوقرونها ويجلونها ويرون فيها آية الأدب الرفيع، ولم يكتف الحريرى فيها بأساليب النثر المنمقة بل ذهب يوشيها أيضا بأساليب الشعر فملأها بالأبيات والمقطوعات التى تلمع وتتألق فى صحفها، وقد بث فيها كثيراً من الحكم والنصائح التى تهدى فى دياجير الحياة... وهذا كله هو الذى يستر صعوبة المقامة عنده.. مما جاء به من ألعاب بلاغية وشعوذات لغوية أو فقهية أو نحوية أو ألغاز ومعميات، وكل ذلك تغمره أساليبه المنمقة البهيجة، فلا يشل الحركة عنده، بل لا نزال حتى عصرنا نتملى بجمال ألفاظه وصياغاته كما كان يتملى بها معاصروه ومن جاءوا بعده، ولا نزال نعدها أجمل ميراث لغوى ورثناه عن كتابنا السالفين[١٤٠]...

(١٤٠) المقامة ص ٧٤، ص ٧٥.

وأنتقل خطوة أخرى متقدمة وبالغة الأهمية مع باحث آخر جاد نشط بدوره وهو يسلك بنا سبيلا جديدة فى بحثه عن «التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى» ويؤكد هذا الباحث الجاد أننا نظلم الحريرى ظلماً فادحاً لو رحنا نطالبه بالحوار الدرامى على نسق ما نراه فى القصة أو المسرحية الحديثة فمن الغبن أن نأخذ فى صرامة أدبا قديماً بمعايير ومقاييس حديثة، ثم يقرر الباحث بالشواهد والأدلة أنه من بين مقامات الحريرى الخمسين ثلاث مقامات توفرت لها كل عناصر القصة القصيرة بالمعايير الفنية الحديثة بل إن كلا منها يمكن أن يمثل مسرحية قيمة من فصل واحد بشئ طفيف جداً من التعديل وهذه المقامات الثلاث هى: المقامة الأربعون «التبريزية»، والمقامة الخامسة والأربعون «الرملية»، والمقامة السابعة والأربعون «الحجرية» وهناك خمس مقامات أخرى يغلب عليها طابع القصص الفنى وإن كان حظها من الحوار قليلاً وهى المقامات: الفرضية، والشعرية، والرقطاء، والزبيدية، والعمانية.

ففى المقامات الثلاث التى ذكرناها تتمثل كل العناصر الفنية الدرامية فى الحوار والشخصيات والصراع والحريرى فيها يقدم قصصا حوارية بل قل مشاهد مسرحية لا يعوزها إلا قليل جدا من التعديل والتنسيق حتى تغدو تمثيليات فنية قيمة...

ويؤكد الباحث أن أى إنكار لهذه العناصر الدرامية والطوابع الفنية فى هذه المقامات المذكورة يعتبر إجحافاً صارخاً فى الحكم على الحريرى[١٤١] ثم يقول فى ختام بحثه:

---

(١٤١) جابر قميحة فى كتابه «التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى من ص ٧٦ إلى ص ٩٥.

«وما زالت مقامات الحريرى بخاصة حقلا خصيبا للدراسة والبحث فى جوانب كثيرة منها، وأعتقد أن تغير الأذواق فى الأدب والفن لا ينال من قيمتها التاريخية والفنية وهذا هو شأن الأدب الخالد يمضى عليه الزمن وهو محتفظ بقيمته بل قد يكتسب بمرور الزمن قيما وأبعاداً جديدة لم يتبينها معاصروه فى زمانهم(١٤٢)...

إن هذا الكلام يؤكد حقيقتين على درجة بالغة من الأهمية:

الحقيقة الأولى: أن إصدار الأحكام الجزافية المطلقة وبخاصة فى القضايا الأدبية والفنية أمر مرفوض تماما لأن البحث العلمى الأصيل يتطلب دراسة متأنية عميقة وأحكاما تستند إلى الأدلة والشواهد وتعتمد على الحجة والبرهان مع الأخذ فى الاعتبار أن الكلمة الفاصلة فى مثل هذه القضايا لم تقل بعد ولن يجرؤ أحد على ادعائها لأن البحث يأتى كل يوم بجديد، ولأن الفكر الإنسانى لم يتوقف يوما أو يهدأ أو يستسلم ويستكين، ولأن الرأى الحصيف والقول السديد، والنظر الثاقب، ليس وقفا على أحد دون أحد وليس قاصرا على محدث أو قديم، وصدق الله العظيم «وفوق كل ذى علم عليم».

الحقيقة الثانية: أن المقامة فن عربى أصيل متميز بخصائصه الذاتية وملامحه الفنية وسماته الأدبية وأهدافه الموضوعية وأن هذه المقامة قد تكون على هيئة أقصوصة «درامية» أو مسرحية حوارية أو مقالة فنية أو خطبة وعظية أو أمثال مروية، أو طرفة أدبية أو نادرة فكاهية أو مسائل ألغازية نحوية أو لغوية أو فقهية... فهى أعم إذن من القصة... بل إنها أصل والقصة فرع، وليس لأحد من النقاد والباحثين أن يحكم عليها بمعيار فن خاص من

(١٤٢) نفسه ص ١٣٤.

هذه الفنون ليأخذ عليها تجاوزا وقصورا فى هذا الجانب أو ذاك لأن مؤلف المقامة أراد لها أن تكون «مقامة» ولم يشأ أن تكون شيئاً آخر غير «المقامة» مع أن صانع المقامة حين أبدع منها نمطا قصصيا (بالمعنى الفنى الحديث) لم يشأ أن يطلق عليها لفظ «القصة» بل كان حريصا غاية الحرص على أن يحتفظ لها بلقب «المقامة» ومعلوم أن من أنشأ بالفعل مقامة واحدة متكاملة العناصر القصصية والفنية يكون بمقدوره أيضاً أن ينشئ عشرات غيرها على نفس المستوى وبنفس المعايير...

نماذج من مقامات الحريرى

المقامة الأولى الصنعانية:

حدث الحارث بن همام قال لما اقتعدت غارب الاغتراب(١٤٣). وأنأتنى(١٤٤) المتربة(١٤٥) عن الأتراب(١٤٦) طوحت بى(١٤٧) طوائح(١٤٨) الزمن إلى صنعاء اليمن فدخلتها خاوى(١٤٩) الوفاض(١٥٠) بادى الإنفاض(١٥١) لا أملك بلغة ولا أجد فى جرابى مضغة(١٥٢) فطفقت أجوب طرقاتها مثل الهائم(١٥٣) وأجول فى

(١٤٣) غارب كل شئ أعلاه واقتعده اتخذه قعدة والغارب الكاهل وهو مقدم ظهر الدابة فاستعاره للاغتراب وهو التغرب عن الوطن.
(١٤٤) أى أبعدتنى.
(١٤٥) الفقر لأنها تلصق صاحبها بالتراب.
(١٤٦) جمع ترب بالكسر وترب الرجل لدته الذى نشأ معه.
(١٤٧) رمت.
(١٤٨) أى خطوبه وقواذفه.
(١٤٩) أى فارغ.
(١٥٠) جمع وفضة هى خريطة من أدم يجعل فيها الراعى زاده.
(١٥١) أنفض الرجل إذا فنى زاده وماله.
(١٥٢) البلغة ما يتبلغ به من العيش وهو اليسير من الزاد والمضغة هى ما يمضغ.
(١٥٣) أى جعلت اقطع طرقاتها بالطواف فيها مثل الحيران.

﴿ ٥٨٩ ﴾

حوماتها جولان الحائم[١٥٤] وأرود فى مسارح لمحاتى ومسايح غدواتى وروحاتى[١٥٥] كريما أخلق له دياجتى[١٥٦] وأبوح إليه بحاجتى أو أديبا تفرج رؤيته غمتى[١٥٧] وتروى روايته غلتى[١٥٨].

حتى أدتنى[١٥٩] خاتمة المطاف وهدتنى فاتحة الألطاف[١٦٠] إلى ناد رحيب محتو على زحام ونحيب[١٦١] فولجت غابة الجمع[١٦٢] لأسبر مجلبة الدمع[١٦٣] فرأيت فى بهرة الحلقة[١٦٤] شخصا شخت الخلقة[١٦٥] عليه أهبة السياحة[١٦٦] وله رنة النياحة[١٦٧] وهو يطبع الأسجاع[١٦٨] بجواهر[١٦٩] لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه، وقد أحاطت به أخلاط[١٧٠] الزمر، إحاطة

---

(١٥٤) طائر إذا اشتد به العطش ورد الماء فحام عليه حتى يغرق وهو يشربه فان ناله الماء تساقط ريشه.

(١٥٥) مسارح اللمحات هى المواضع التى يجول فيها النظر والمسايح جمع مسيحة من ساح فى الأرض يسيح إذا ذهب والغدوات والروحات بمعنى الذهاب والمجئ.

(١٥٦) أى أبذل له وجهى.

(١٥٧) الغمة ما على القلب من الغم.

(١٥٨) الغلة بالضم شدة العطش.

(١٥٩) أوصلتنى.

(١٦٠) اى اول الطاف الله بى.

(١٦١) هو صوت البكاء والإعوال.

(١٦٢) الغابة فى الاصل الشجر الملتف فاستعارها للازدحام.

(١٦٣) أى لأختبر سبب البكاء.

(١٦٤) بضم الموحدة اى وسطها.

(١٦٥) الشخت والشخيت الدقيق النحيف قال الاعشى.

عريضة بوص إذا أدبرت هضيم الحشى شختة المختصر

أى عريضة الكفل ضامرة البطن دقيقة الخصر.

(١٦٦) يعنى شعارها والأهبة فى الاصل: العدة والتأهب.

(١٦٧) هى أنين الباكى بحزن.

(١٦٨) اى يصوغها ويرتبها وهى من الكلام ما كان له فواصل كقوافى الشعر.

(١٦٩) جمع جوهر وجوهر كل شئ خياره.

(١٧٠) أو باش مختلفون من الجماعات.

﴿ ٥٩٠ ﴾

الهالة[١٧١] بالقمر، والأكمام[١٧٢] بالثمر، فدلفت[١٧٣] إليه لأقتبس من فوائده، وألتقط بعض فرائده[١٧٤]، فسمعته يقول حين خب فى مجاله[١٧٥] وهدرت[١٧٦] شقاشق[١٧٧] ارتجاله أيها السادر[١٧٨] فى غلوائه[١٧٩] السادل[١٨٠] ثوب خيلائه[١٨١] الجامح[١٨٢] فى جهالاته الجانح[١٨٣] إلى خزعبلاته[١٨٤] إلام تستمر[١٨٥] على غيك وتستمرئ[١٨٦] مرعى بغيك وحتام تتناهى فى زهوك[١٨٧] ولا تنتهى عن لهوك تبارز[١٨٨] بمعصيتك ما لك ناصيتك[١٨٩] وتجترى[١٩٠] بقبح سيرتك على عالم سريرتك وتتوارى[١٩١] عن

---

(١٧١) الدائرة حول القمر.
(١٧٢) جمع كم بالكسر وهو وعاء الطلع.
(١٧٣) الدلف أن يمشى الشيخ مشيا رويدا ويقارب الخطو.
(١٧٤) أى نوادره وغرائبه جمع فريدة وهى فى الأصل ما يجعل فاصلة بين الجواهر سميت بذلك لانفرادها وتستعار للنادرة.
(١٧٥) أسرع فى طريقة.
(١٧٦) ارتفعت وصوتت من هدر الحمام صوت وصاح وهدر البعير اى ردد صوته فى حنجرته.
(١٧٧) جمع شقشقة بكسر الشينين المعجمتين وهى فى الاصل ما يخرجه البعير من فيه إذا هاج ويقال للخطيب انه لذ وشقشقة تشبيها بالفحل الكثير الهدير وفلان شقشقة قومه اى فصيحهم وشريفهم.
(١٧٨) الذى لا يبالى بما صنع.
(١٧٩) اى غلوه ومجاوزته الحد.
(١٨٠) من السدل وهو ارخاء الثوب وارساله من غير ضم جانبيه.
(١٨١) كبر.
(١٨٢) مأخوذ من جمح الفرس إذا مرد براكبه ولم يرده اللجام.
(١٨٣) المائل.
(١٨٤) جمع خز عبلة بضم الخاء وكسر الباء الحديث الباطل.
(١٨٥) أى إلى أى حين تستديم وتمضى.
(١٨٦) تعده مرينا أو تستطيبه.
(١٨٧) أى حتى متى تبلغ النهاية فى الكبر.
(١٨٨) أى تحارب.
(١٨٩) هى مقدم الرأس.
(١٩٠) من الجراءة وهى الإقدام.
(١٩١) أى تستتر.

﴿ ٥٩١ ﴾

قريبك وأنت بمر أى رقيبك[١٩٢] وتستخفى من مملوكك وما تخفى خافية على مليكك أتظن أن ستنفعك حالك إذا آن ارتحالك أو ينقذك مالك حين توبقك[١٩٣] أعمالك أو يغنى عنك ندمك إذا زلت قدمك أو يعطف عليك معشرك[١٩٤] يوم يضمك محشرك[١٩٥] هلا[١٩٦] انتهجت[١٩٧] محجة اهتدائك وعجلت معالجة دائك وفللت شباة اعتدائك[١٩٨] وقدعت نفسك[١٩٩] فهى أكبر أعدائك[٢٠٠] أما الحمام ميعادك فما إعدادك وبالمشيب إنذارك فما إعذارك[٢٠١].

وفى اللحد مقيلك[٢٠٢]* فما قيلك[٢٠٣]* وإلى الله مصيرك* فمن نصيرك* طالما أيقظك الدهر فتناعست* وجذبك الوعظ فتقاعست[٢٠٤]* وتجلت لك العبر[٢٠٥] فتعاميت* وحصحص[٢٠٦] لك الحق فتماريت* وأذكرك الموت فتناسيت[٢٠٧]*

---

(١٩٢) أى عالم أمرك وهو الله تعالى.
(١٩٣) تهلكك.
(١٩٤) عشيرتك وأقاربك.
(١٩٥) المحشر هو يوم الحشر.
(١٩٦) حرف تحضيض على الفعل وحث عليه كلو وكلا ولو ما.
(١٩٧) أى سلكت والمحجة بالفتح معظم الطريق.
(١٩٨) أى كسرت حد ظلمك
(١٩٩) بالدال المهملة أى كففتها ومنعتها عن القبيح.
(٢٠٠) إشارة إلى قوله عليه السلام أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك.
(٢٠١) بفتح الهمزة جمع نذر وعذر كذاذ كره المطرزى فأما بالكسر فالأول الإعلام بتخويف والثانى صيرورة الرجل ذا عذر ومنه أعذر من أنذر.
(٢٠٢) أى مصيرك وأصله النوم بالقائلة وهى الظهيرة.
(٢٠٣) أى فما قولك.
(٢٠٤) أى تأخرت والقعس محركة دخول الظهر وخروج الصدر ضد الحدب.
(٢٠٥) ظهرت لك أسباب الاعتبار.
(٢٠٦) أى ظهر من الحص بالتشديد وهو ذهاب الشعر فيتبين ما تحته.
(٢٠٧) أظهرت أنك ناس ولست كذلك.

﴿ ٥٩٢ ﴾

وأمكنك أن تواسى(٢٠٨) فما آسيت(٢٠٩)* تؤثر فلسا(٢١٠) توعيه(٢١١)* على ذكر(٢١٢) تعيه(٢١٣)* وتختار قصراً(٢١٤) تعليه* على بر توليه(٢١٥)* وترغب(٢١٦) عن هاد تستهديه(٢١٧)* إلى زاد تستهديه(٢١٨)* وتغلب حب ثوب تشتهيه* على ثواب تشتريه* يواقيت الصلات(٢١٩)* أعلق بقلبك من مواقيت الصلاة* ومغالاة الصَّدُقات(٢٢٠)* آثر عندك من موالاة الصَّدَقات* وصحاف(٢٢١) الألوان* أشهى إليك من صحائف(٢٢٢) الأديان(٢٢٣)* ودعابة(٢٢٤) الأقران(٢٢٥)* آنس لك من تلاوة القرآن* تأمر بالعرف(٢٢٦) وتنتهك(٢٢٧) حماه(٢٢٨)* وتحمى(٢٢٩) عن النكر

---

(٢٠٨) تحسن إلى غيرك وتجعله أسوتك فى شئ من مالك.
(٢٠٩) بهمزة ممدودة فى أوله وهو الأفصح أى فما أحسنت.
(٢١٠) مما يتعامل به.
(٢١١) تجعله فى وعائك.
(٢١٢) أى علم عن الدين.
(٢١٣) أى تحفظه والمعنى تقدم الدنيا على الآخرة.
(٢١٤) هو البناء الرفيع الذى يتعاناه الملوك.
(٢١٥) تعطيه.
(٢١٦) رغب عن الشئ إذا لم يرده ورغب فى الشئ أراده وبابهما طرب.
(٢١٧) من الهداية أى تسترشده وتطلب منه الهداية.
(٢١٨) من الهدية أى تطلب أن يهدى إليك.
(٢١٩) أى نفائس العطايا.
(٢٢٠) بضم الدال جمع صدقة بالضم وهى ما يعطى للنساء من المهر.
(٢٢١) بكسر الصاد جمع صحفة وهى إناء منبسط واسع.
(٢٢٢) بالهمزة جمع صحيفة من الكتب.
(٢٢٣) جمع دين وهى كلمة تجمع أنواع التعبد الاعتقادية والقولية والفعلية.
(٢٢٤) بضم الدال المهملة أى مزاح.
(٢٢٥) جمع قرن بالكسر وهو المماثل.
(٢٢٦) هو بمعنى المعروف كما أن النكر بمعنى المنكر.
(٢٢٧) أى تستأصل وتبالغ فى تناوله بما لا يجوز.
(٢٢٨) هو المكان الذى منع منه تعظيما له.
(٢٢٩) تمنع وهو من حميت المريض الطعام.

﴿ ٥٩٣ ﴾

ولاتتحاماه* وتزحزح[٢٣٠] عن الظلم ثم تغشاه[٢٣١]* وتخشى الناس[٢٣٢] والله أحق أن تخشاه* ثم أنشد

تبا[٢٣٣] لطالب دنيا* ثنى[٢٣٤] إليها انصبابه[٢٣٥]
ما يستفيق[٢٣٦] غراما[٢٣٧]* بها وفرط[٢٣٨] صبابه[٢٣٩]
ولو درى لكفاه* مما يروم صُبابه[٢٤٠]

ثم إنه لبد عجاجته[٢٤١]* وغيض مجاجته[٢٤٢]* واعتضد شكوته[٢٤٣]* وتأبط هراوته[٢٤٤]* فلما رنت[٢٤٥] الجماعة الى تحفزه[٢٤٦]* ورأت تأهبه لمزايلة مركزه[٢٤٧]* أدخل كل منهم يده فى جيبه* فأفعم[٢٤٨] له

---

(٢٣٠) تبعد.
(٢٣١) تأتيه.
(٢٣٢) يطلق على الانس والجن بخلاف الانس وأصله وأناس فخفف وهى لغة فيه أيضا.
(٢٣٣) أى خسراً وانتصابه على المصدر.
(٢٣٤) عطف وصرف.
(٢٣٥) أى ميله وأصل الانصباب سرعة المشى.
(٢٣٦) استفاق من غشيته أى رجع إلى عقله.
(٢٣٧) هو شدة الحب.
(٢٣٨) بالتكسين مجاوزة الحد.
(٢٣٩) هى بالفتح رقة الشوق وكذا الصبوة.
(٢٤٠) بالضم البقية اليسيرة من الشرب فى الأناء والحوض والمراد الاكتفاء بالشئ القليل يدل الكثير الجزيل.
(٢٤١) أى سكن غبرته والمراد قطع كلامه.
(٢٤٢) أى ابتلع ريقه.
(٢٤٣) هى قرية صغيرة واعتضدها أى جعلها فى عضده.
(٢٤٤) أى جعل عصاه تحت ابطه.
(٢٤٥) أى نظرت طويلاً.
(٢٤٦) أى تهيئه للقيام والذهاب.
(٢٤٧) أى لمفارقة موضعه.
(٢٤٨) أى ملأ وإناء مفعم أى مملوء.

﴿ ٥٩٤ ﴾

سجلا[٢٤٩]. من سيبه[٢٥٠]* وقال[٢٥١] اصرف هذا فى نفقتك* أو فرقه على رفقتك* فقبله منهم مغضيا[٢٥٢]* وانثنى عنهم مثنيا* وجعل يودع[٢٥٣] من يشيعه[٢٥٤]* ليخفى عليه مهيعه[٢٥٥]* ويسرب[٢٥٦] من يتبعه* لكى يجهل مربعه[٢٥٧]* قال الحارث بن همام فاتبعته مواريا[٢٥٨] عنه عيانى[٢٥٩]* وقفوت[٢٦٠] إثره من حيث لا يرانى* حتى انتهى الى مغارة[٢٦١]* فانساب[٢٦٢] فيها على غرارة[٢٦٣]* فامهلته ريثما[٢٦٤] خلع نعليه* وغسل رجليه* ثم هجمت عليه* فوجدته مثافنا[٢٦٥] لثميذ* على خبز سميذ[٢٦٦]* وجدى حنيذ[٢٦٧]* وقبالتهما خابية نبيذ* فقلت له يا هذا أيكون ذاك خبرك* وهذا

---

(٢٤٩) هو الدلو اذا كان فيها ماء.
(٢٥٠) أى عطائه والمراد أجزل له العطاء.
(٢٥١) يعنى كل واحد منهم.
(٢٥٢) ضاما جفنيه حياء.
(٢٥٣) مشتق من التوديع.
(٢٥٤) يقال شيعه إذا خرج عند رحيله مودعا.
(٢٥٥) بفتح الميم وهو الطريق الواضح الواسع.
(٢٥٦) يفرق وسرب الإبل أى أرسلها قطعة.
(٢٥٧) أى منزله وأصله منزل القوم فى الربيع.
(٢٥٨) أى مخفيا.
(٢٥٩) شخصى.
(٢٦٠) اتبعت.
(٢٦١) المغارة بيت تحت الأرض كالكهف فى الجبل.
(٢٦٢) جرى أومر مسرعا وأصله من جرى الحية.
(٢٦٣) الغرة بالكسر والغرارة بالفتح سواء الغفلة.
(٢٦٤) أى قدر ما أوصل الريث البطء يقال راث علينا أى أبطأ.
(٢٦٥) أى مجالسا وفى نسخة محاذيا وهو الذى يكون عن يمين الرجل أو يساره.
(٢٦٦) أى حوارى وهو الأبيض الخالص.
(٢٦٧) المشوى على حجارة محماة وقيل هو السمين.

﴿ ٥٩٥ ﴾

مخبرك[٢٦٨] فزفر[٢٦٩] زفرة القيظ[٢٧٠]* وكاد يتميز[٢٧١] من الغيظ* ولم يزل يحملق[٢٧٢] إلى* حتى خفت أن يسطو على* فلما أن خبت ناره[٢٧٣]* وتوارى أواره[٢٧٤]* أنشد شعره

لبست الخميصه[٢٧٥] أبغى الخبيصة[٢٧٦]* وأنشبت[٢٧٧] شصّى[٢٧٨] فى كل شيصه[٢٧٩]
وصيرت وعظى أحبولة[٢٨٠]* أريغ[٢٨١] القنيص[٢٨٢] بها والقنيصه[٢٨٣]
وألجأنى الدهر حتى ولجت* بلطف احتيالى على الليث[٢٨٤] عيصة[٢٨٥]
على أننى لم أهب صرفه[٢٨٦]*ولا نبضت[٢٨٧] لى منه فريصه[٢٨٨]

---

(٢٦٨) المخبر يستعمل للباطن كما أن الخبر يستعمل للظاهر.
(٢٦٩) أى ردد نفسه من شدة الغيظ والحدة.
(٢٧٠) هو شدة الحر والصيف.
(٢٧١) أى يتقطع ويتمزق.
(٢٧٢) يحد نظره من شدة الغيظ وهو الغضب الكامن فى الباطن.
(٢٧٣) أى خمدت يريد سكن غضبه.
(٢٧٤) أى اختفى احتداده وأصل الأوار بضم الهمزة حر النار والشمس فاستعير للغيظ.
(٢٧٥) هى كساءله علمان أسودان.
(٢٧٦) أى أطلب الحلوى وممن خبص الخبيصة عثمان رضى الله عنه خلط بين العسل ونقى الدقيق ثم بعث به إليه عليه السلام فى منزل أم سلمة فوضع بين يديه فقال من بعث بهذا قالوا عثمان فرفع وجهه إلى السماء وقال اللهم إن عثمان يسترضيك فارض عنه.
(٢٧٧) يقال نشب الصيد فى الحبالة اذا وقع فيها وأنشبه غيره أوقعه.
(٢٧٨) الشص بالكسر حديدة معوجة دقيقة تسمى بالصنار.
(٢٧٩) الشيصة فيماذ كرأهل العلم هى أخبث السمك أو هى ردئ التمر فاستعير لكل شئ ردئ.
(٢٨٠) الأحبولة والحبالة شبكة الصيد.
(٢٨١) أراغ الشئ إذا طلبه على وجه المكر.
(٢٨٢) هو الصيد الذكر.
(٢٨٣) هى الصيد الأنثى.
(٢٨٤) من أسماء الأسد.
(٢٨٥) أى بيته ومأواه.
(٢٨٦) بالفتح أى حوادثه.
(٢٨٧) أى تحركت.
(٢٨٨) الفريصة لحمة تكون تحت الكتف من شأنها أن ترعد عند الفزع.

﴿ ٥٩٦ ﴾

ولا شـــرعت[٢٨٩] بى على مـــورد* يدنـــس عرضى نفـــس حريصـــه
ولو أنصـــف الدهر فى حكمـــــــه* لما ملـك الحكم أهـــــل النقيصـــه

ثم قال لى ادن فكل* وإن شئت فقم وقل* فالتفت إلى تلميذه وقلت عزمت عليك بمن تستدفع بـه الأذى* لتخبرنى من ذا فقال هذا أبو زيد السروجى سراج الغرباء[٢٩٠]* وتاج الأدباء، فانصرفت من حيث أتيت* وقضيت العجب مما رأيت.

المقامة الأربعون التبريزية:

أخبر الحارث بن همام قال أزمعت[٢٩١] التبريز[٢٩٢] من تبريز[٢٩٣]* حيـــن نبت بالذليـــــــل والعزيـــــز[٢٩٤]* وخلـت مـن المجـير[٢٩٥] والمجيز[٢٩٦]* فبينا أنا فى إعداد الأهبة[٢٩٧]* وارتياد الصحبة[٢٩٨]* ألفيت بها أبا زيدٍ السروجى ملتفاً بكساء* ومحتفا[٢٩٩] بنساء* فسألته عن خطبه[٣٠٠]

---

(٢٨٩) شرع فى الامر والماء أى دخل فيه وشرع إبله إذا أوردها شريعة الماء وفى المثل أهون السقى التشريع.
(٢٩٠) جمع غريب وهو البعيد عن الأوطان.
(٢٩١) عزمت يقال أزمع المسير وعلى المسير اذا عزم عليه مثل أجمعته وأجمعت عليه اذا عقد قلبه عليه وقصده.
(٢٩٢) أصله الخروج إلى البرازوهى الأرض الواسعة التى لا شجر فيها والمراد هنا الخروج للسفر.
(٢٩٣) قرية من بلاد العواصم من كور أذربيجان من عمل خراسان بينهما وبين المراغة عشرون فرخسا.
(٢٩٤) نبابه المكان نحاه عنه ورفعه والمراد انها صارت لا تصلح للإقامة.
(٢٩٥) من الجوار وهو الأمان.
(٢٩٦) الذى يعطى الجائزة أو الذى يجيز القافلة من مواضع الخوف أو الوصى.
(٢٩٧) تهيئة حوائج السفر.
(٢٩٨) أى طلب من أصاحبه فى السفر.
(٢٩٩) أى ومحاطا حوله.
(٣٠٠) أمره وشأنه.

﴿ ٥٩٧ ﴾

وإلى أين يسرب[٣٠١] مع سربه[٣٠٢]* فأومأ[٣٠٣] إلى امرأة منهن باهرة السفور[٣٠٤]* ظاهرة النفور* وقال تزوجت هذه لتؤنسنى فى الغربة* وترخص[٣٠٥] عنى قشف العزبة[٣٠٦]*.

فلقيت منها عرق القربة[٣٠٧]* تمطلنى بحقى[٣٠٨]* وتكلفنى فوق طوقى[٣٠٩]* فأنا منها نضووجى[٣١٠]* وحلف شجو[٣١١] وشجى[٣١٢]* ونحن قد تساعينا إلى الحاكم* ليضرب على يد الظالم[٣١٣]* فإن انتظم بيننا الوفاق* وإلا فالطلاق[٣١٤]* قال فملت[٣١٥] إلى أن أخبر لمن الغلب[٣١٦]* وكيف يكون

---

(٣٠١) يذهب ويسير.
(٣٠٢) السرب بالكسر قطيع الظباء فاستعير للنساء.
(٣٠٣) أشار.
(٣٠٤) أى انها جميلة تبهر وتدهش من يرى وجهها لحسنها مصدر سفرت المرأة فهى سافرة اذا رفعت النقاب عن وجهها.
(٣٠٥) تغسل وتزيل.
(٣٠٦) القشف التغير وسوء العيش والمقشف من لا يتعهد نفسه وثيابه بالغسل والنظافة والعزبة عدم التزوج.
(٣٠٧) قال الاصمعى معناه الشدة ولا أدرى ما أصله وقيل أنه العرق الحاصل لحامل القربة وأصله أن القربة إنما تحملها الإماء الزوافر ومن لا ماهن له وربما افتقر الكريم فاحتاج إلى حملها بنفسه فيعرق لما يلحقه من المشقة والحياء أى وجدت منها عرق الحامل للقربة.
(٣٠٨) كناية عن عدم رضاها وامتناعها عن الجماع.
(٣٠٩) أى طاقتى.
(٣١٠) النضو البعير المهزول والوجى كلال الرجل وكنى به عن شدة شرها وما يلقاه من كيدها.
(٣١١) أى ملازم للحزن من سوء عشرتها.
(٣١٢) أصلة الشوكة تعترض فى الحلق.
(٣١٣) أى ليمنع الظالم مناو يردعه من قولهم ضرب القاضى على يده إذا حجر عليه ومنعه من التصرف.
(٣١٤) أى الذهاب.
(٣١٥) اشتقت.
(٣١٦) بالتحريك أى من يكون غالبا منهما.

﴿ ٥٩٨ ﴾

المنقلب[٣١٧]* فجعلت شغلى دبر أذنى[٣١٨]* وصحبتهما وإن كنت لا أغنى[٣١٩]* فلما حضرا القاضى وكان ممن يرى فضل الإمساك[٣٢٠]* ويضن[٣٢١] بنفائة السواك[٣٢٢]* جثا[٣٢٣] أبو زيد بين يديه* وقال أيد الله القاضى وأحسن إليه* إن مطيتى[٣٢٤] هذه أبية القياد[٣٢٥] كثيرة الشراد[٣٢٦]* مع أنى أطوع لها من بنانها[٣٢٧]* وأحنى[٣٢٨] عليها من جنانها[٣٢٩]* فقال لها القاضى ويحك أما علمت أن النشوز[٣٣٠] يغضب الرب[٣٣١]* ويوجب الضرب* فقالت إنه ممن يدور خلف الدار[٣٣٢] ويأخذ الجار بالجار[٣٣٣]* فقال له القاضى تبا لك[٣٣٤] أتبذر فى السباخ[٣٣٥]* وتستفرخ حيث لا إفراخ*

---

(٣١٧) أى ما يؤول إليه الأمر بالرجوع.
(٣١٨) أى خلف أذنى كما يقال جعلته وراء ظهرى كناية عن تركه مصالح نفسه.
(٣١٩) لا أنفع.
(٣٢٠) البخل والشح.
(٣٢١) يبخل.
(٣٢٢) ما يطرق من الفم بعد الاستياك من السواك وهو مثل للشئ التافه يقال لو سألتنى نفائة سواك ما أعطيتك.
(٣٢٣) أى برك.
(٣٢٤) أصلها الراحلة وكنى بها عن الزوجة.
(٣٢٥) القياد حبل تقاد به الدابة يريد أنها مستعصية عن الطاعة.
(٣٢٦) الشراد والشرود كالنفار والنفور وزنا ومعنى.
(٣٢٧) أطراف أصابعها.
(٣٢٨) أشفق وأرحم.
(٣٢٩) قلبها.
(٣٣٠) مخالفة الزوج.
(٣٣١) يعنى به هنا الزوج فان الرب السيد وهو يقال للزوج ومنه وألفيا سيدها لدى الباب.
(٣٣٢) كناية عن كونه يأتيها فى دبرها.
(٣٣٣) الاصل فيه أن رجلاً من العرب أراد أن يأتى أهله من غير المأتى فقالت له اتق الله فأنشأ يقول إنى ورب البيت ذى الأستار لأهتكن حلق الحتار (قد يؤخذ الجار بذنب الجار) والحتار الدبر وما أحاط به المثل وفى بعض النسخ هنا وليس لى على ذلك اصطبار.
(٣٣٤) أى خسرا وهلاكا.
(٣٣٥) أراد تلقى نطفتك فى موضع لا يحصل منه نتاج.

﴿ ٥٩٩ ﴾

اعزب[٣٣٦] عنى لا نعم عوفك[٣٣٧]* ولا أمن خوفك* فقال أبو زيد إنها ومرسل الرياح* لأكذب من سجاح[٣٣٨] فقالت بل هو ومن طوق الحمامة[٣٣٩]* وجنح النعامة[٣٤٠]* لأكذب من أبى ثمامة[٣٤١]* حيث مخرق باليمامة[٣٤٢]* فزفر[٣٤٣]* أبو زيد زفير الشواظ[٣٤٤]* واستشاط[٣٤٥] استشاطة المغتاظ[٣٤٦]* وقال لها ويلك[٣٤٧] يا دفار يا فجار[٣٤٨]* يا غصة البعل[٣٤٩] والجار* أتعمدين[٣٥٠] فى الخلوة[٣٥١] لتعذيبى* وتبدين[٣٥٢] فى الحفلة[٣٥٣] تكذيبى* وقد علمت أنى حين بنيت عليك[٣٥٤]* ورنوت إليك[٣٥٥]* ألفيتك أقبح

---

(٣٣٦) ابعد.
(٣٣٧) حالك ويطلق العوف على الذكر.
(٣٣٨) هى بنت المنذر ادعت النبوة بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد مسيلمة الكذاب ولما سمع بها خاف أن يتبعها الناس فتوجه إليها وخطبها لنفسه فوهبت نفسها له وقيل إنها أسلمت وحسن إسلامها.
(٣٣٩) جعل لها طوقا.
(٣٤٠) جعل لها جناحين.
(٣٤١) كنية مسيلمة الكذاب وأمره مشهور.
(٣٤٢) المخرقة افتعال الكذب وهى كلمة مولدة.
(٣٤٣) تنفس بغيظ وأصل الزفير توهج النار.
(٣٤٤) أى النار بلا دخان.
(٣٤٥) احترق قلبه من الغيظ.
(٣٤٦) الغضبان.
(٣٤٧) أى الويل لك وهى كلمة توبيخ.
(٣٤٨) أى يا نتنة يا فاجرة.
(٣٤٩) الزوج.
(٣٥٠) أى أتقصدين.
(٣٥١) أى حين أخلو معك.
(٣٥٢) تظهرين.
(٣٥٣) فى محفل الناس وحضورهم.
(٣٥٤) أى ليلة دخولى بك.
(٣٥٥) نظرتك.

﴿ ٦٠٠ ﴾

من قردة[٣٥٦]* وأيبس من قدة[٣٥٧]* وأخشن من ليفة* وأنتن من جيفة* وأثقل من هيضة[٣٥٨]* وأقذر من حيضة[٣٥٩]* وأبرز من قشرة[٣٦٠]*وأبرد من قرة[٣٦١]* وأحمق من رجلة[٣٦٢]* وأوسع من دجلة[٣٦٣]* فسترت عوارك[٣٦٤]* ولم أبد عارك[٣٦٥]* على أنه لو حبتك شيرين[٣٦٦] بجمالها*وزبيدة[٣٦٧] بما لها* وبلقيس[٣٦٨]* بعرشها[٣٦٩] وبوران[٣٧٠] بفرشها* والزباء[٣٧١] بملكها* ورابعة بنسكها[٣٧٢]* وخندف بفخرها[٣٧٣]*

---

(٣٥٦) هو من أمثال المولدين.
(٣٥٧) هى قطعة من الجلد الغير المدبوغة.
(٣٥٨) تخمة ينشأ عنها القئ والإسهال.
(٣٥٩) الحيضة بالكسر خرقة الحائض التى تحتشى بها ومنها قول عائشة رضى الله عنها البتنى كنت حيضة ملقاه.
(٣٦٠) أراد أنها غير مخدرة.
(٣٦١) أى من ليلة باردة يريد الفرج.
(٣٦٢) هى البقلة الحمقاء وسيأتى فى تفسير المقامة ما فيه.
(٣٦٣) هو نهر بالعراق يريد أنه وجدها مفتضة.
(٣٦٤) عيبك.
(٣٦٥) أى لم أظهر فضيحتك.
(٣٦٦) هى أمراة كسرى وكانت غاية فى الجمال.
(٣٦٧) هى زوج هارون الرشيد وجدها المنصور وعمها المهدى وابنها الأمين فاحاطت بها الخلافة من كل جانب وكانت ذات مال أنفقت فى سبيل الله وفى الحج وفى بناء المساجد ألف وسبعمائة ألف دينار ولها خيرات كثيرة.
(٣٦٨) هى زوج نبى الله سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وهى التى ذكرت قصتها فى سورة النمل وكانت ملكة سبأ.
(٣٦٩) أى بسريرها وكان صفائح ذهب قد رصعت بفصوص الياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر.
(٣٧٠) هى ابنة الحسن بن سهل وكانت من أجمل أهل عصرها تزوجها المأمون بن الرشيد فى أيام خلافته ولما أملك عليها قيل أن أباها كتب أسماء ضياع وعقارات ونثرها فى مجلس العقد على الحاضرين فكل من وقعت فى يده رقعة تملك ما كتب فيها.
(٣٧١) هى ملكة اليمامة قبل الاسلام وكانت من بنات العمالقة واسمها ليلى تولت الملك بعد أبيها لعدم الولد وأحسنت السياسة وخطبها جذيمة الأبرش وكانت تبغض الرجال فخدعته حتى أتاها فقتلته ثم تحيل قصير وعمر وحتى قتلاها وقصتها مشهورة.
(٣٧٢) أى عبادتها وهى رابعة بنت إسماعيل العدوية الشهيرة بالنسك والفضل.
(٣٧٣) هى ليلى بنت حلوان امرأة الياس بن عمرو وهى أم العرب وجميع القبائل من ولدها فلها الفخر فى الجاهلية والاسلام لان نسب قريش ينتهى إليها.

﴿ ٦٠١ ﴾

والخنساء بشعرها(٣٧٤)* فى صخرها لأنفت(٣٧٥) أن تكونى قعيدة رحلى(٣٧٦)* وطروقة فحلى(٣٧٧)* قال فتذمرت(٣٧٨) المرأة وتنمرت(٣٧٩)* وحسرت عن ساعدها وشمرت*.

وقالت له يا ألأم من مادر(٣٨٠)* وأشام من قاشر* وأجبن من صافر* وأطيش من طامر* أترمينى بشنارك(٣٨١)* وتفرى(٣٨٢) عرضى(٣٨٣) بشفارك(٣٨٤)* وأنت تعلم أنك أحقر من قلامه(٣٨٥)* وأعيب من بغلة أبى دلامة(٣٨٦)* وأفضح من حبقة(٣٨٧)* فى حلقة(٣٨٨)* وأحير من

---

(٣٧٤) الخنساء بنت عمرو بن الشريد أجمع علماء البلاغة على أنه لم تكن قط امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها لا سيما مارثت به صخرا أخاها.

(٣٧٥) أى لكرهت.

(٣٧٦) القعيدة ما يركب عليه.

(٣٧٧) هى الناقة التى بلغت أن يطرقها الفحل.

(٣٧٨) غضبت.

(٣٧٩) تشبهت بالنمر وتنكرت.

(٣٨٠) رجل بخيل لئيم سيذكره المؤلف فى تفسير هذه المقامة وكذا ما بعده.

(٣٨١) عارك وعيبك.

(٣٨٢) تقطع.

(٣٨٣) هو موضوع المدح والذم من الإنسان.

(٣٨٤) أى بسكاكينك يعنى بكلامك المؤلم.

(٣٨٥) هى ما يقص من الظفر ويرمى.

(٣٨٦) كانت أقبح الدواب يضرب بها المثل فى كثرة العيوب ولها فيها قصيدة منها قوله:

أرى الشهباء تعجن إذ غذونا * برجليها وتخبز باليدين

وأبو دلامة اسمه زند بالنون ابن الجون وهو كوفى أسود مولى لبنى أسد أدرك آخر أيام بنى أمية ونبغ فى أيام بنى العباس ومدح عبد الله السفاح والمنصور ومن عيوب بغلته أنها كانت تحبس بولها فإذا ركبها ومر بها على جماعة وقفت ورفعت ذنبها وبالت ثم رشتهم ببولها.

(٣٨٧) ضرطة.

(٣٨٨) أى فى جماعة.

﴿٦٠٢﴾

بقة[٣٨٩]* فى حقه* وهبك الحسن[٣٩٠] فى وعظه ولفظه* والشعبى[٣٩١] فى علمه وحفظه* والخليل[٣٩٢] فى عروضه ونحوه* وجريرا[٣٩٣] فى غزله[٣٩٤] وهجوه[٣٩٥]* وقسا[٣٩٦] فى فصاحته وخطابته* وعبد الحميد[٣٩٧] فى بلاغته وكتابته[٣٩٨]* وأبا عمرو[٣٩٩] فى قراءته[٤٠٠] وإعرابه[٤٠١]* وابن قريب[٤٠٢] فى روايته عن أعرابه[٤٠٣]* أتظننى أرضاك إماما لمحرابى[٤٠٤]* وحساما

---

(٣٨٩) هى من كبار البعوض.

(٣٩٠) أى البصرى وهو العالم المشهور بالدين والصلاح من التابعين كان أحسن الناس لفظا وأبلغهم وعظا وكان مقدما فى العلم والدين على أقرانه مات سنة مائة وعشر وله من العمر تسعون سنة رحمه الله.

(٣٩١) هو عامر بن عبد الله بن سراحيل منسوب إلى شعب قبيلة باليمن كان عالما حافظا أديبا وأخباره أشهر من أن تذكر.

(٣٩٢) هو أبو عبد الرحمن بن أحمد البصرى من أزهد الناس وأعلاهم نفسا وأشدهم تعففا هاداه الملوك فلم يقبل كان يغزو سنة ويحج سنة وكان غاية فى النحو وهو واضع علم العروض ومقسم الشعر إلى البحور المستعملة الآن رحمة الله عليه.

(٣٩٣) هو ابن عطية بن الخطفى كان شاعر من فحول شعراء العرب اتفق العلماء على أن أشعر الإسلاميين الفرزدق والأخطل وجرير وهو أحسنهم.

(٣٩٤) الغزل ذكر محاسن المحبوب ومدحه.

(٣٩٥) هو ذكر قبائح المبغوض وذمه.

(٣٩٦) هو قس بن ساعدة الإيادى يضرب به المثل فى الفصاحة والخطابة وهو من حكماء العرب وكان مؤمنا بالله ومبشرا برسوله وهو أول من خطب متوكئا على عصا وكان سبطا من أسباط العرب صحيح النسب فصيحا ذا شيبة حسنة عمر طويلا وخطبته بسوق عكاظ مشهورة.

(٣٩٧) هو كاتب مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية كان إماما فى الكتابة مقدما فى الخطابة والفصاحة بليغا مراسلا قتله عبد الله السفاح بين يديه رحمة الله عليه.

(٣٩٨) أى انشائه.

(٣٩٩) هو ابن العلاء كان مقدما فى عصره عالما بالقراءة قدوة فى العلم واللغة اماما فى العربية أعرف أهل زمانة بايام العرب وأنسابها وأشعارها ونذر على نفسه أن يختم القرآن فى كل ثلاث ليال.

(٤٠٠) السبعية.

(٤٠١) فى النحو.

(٤٠٢) هو عبد الملك ابن قريب الاصمعى تقدم ذكر مناقبه فراجعها.

(٤٠٣) هم أهل البادية.

(٤٠٤) شبهته فى جلوسه بين شعبتيها ومقابلته لصدرها بالامام وصدرها له كالمحراب.

﴿ ٦٠٣ ﴾

لقرابى(٤٠٥)* لا والله ولا بوابا لبابى* ولا عصا لجرابى(٤٠٦)* فقال لهما القاضى أراكما شَنًّا وطبقة* وحدأة وبندقة(٤٠٧)* فاترك أيها الرجل اللدد(٤٠٨)* واسلك فى سيرك الجدد(٤٠٩)* وأما أنت فكفى عن سبابه(٤١٠)* وقرى(٤١١) إذا أتى البيت من بابه(٤١٢)* فقالت المرأة والله ما أسجن(٤١٣) عنه لسانى* إلا إذا كسانى* ولا أرفع له شراعى(٤١٤)* دون إشباعى* فحلف أبو زيد بالمحرجات الثلاث(٤١٥) أنه لا يملك سوى أطماره(٤١٦) الرثاث(٤١٧)* فنظر القاضى فى قصصهما(٤١٨) نظر الألمعى(٤١٩)* وأفكر فكرة اللوذعى(٤٢٠)* ثم أقبل عليهما بوجه قد قطبه(٤٢١)* ومجن قد قلبه(٤٢٢)* وقال ألم يكفكما التسافة(٤٢٣) فى

---

(٤٠٥) كنت عن الذكر بالحسام وهو السيف وعن فرجها بالقراب وهو الغمد.
(٤٠٦) من ذلك القبيل وانما غايرت بين الألفاظ للتفنن.
(٤٠٧) هذا مثل وسيأتى تفسيره وأراد أنكما متكافئان.
(٤٠٨) الخصومة الشديدة.
(٤٠٩) أصله الأرض الصلبة والمراد اتبع الحق واترك الباطل.
(٤١٠) سبه.
(٤١١) اسكنى.
(٤١٢) أى جامع مع المحل المعد للجماع.
(٤١٣) ما أكف.
(٤١٤) أرادت رجليها.
(٤١٥) هى والله وبالله وتالله وقيل هى الطلاق بالثلاث وقيل هى الطلاق والعتق والمشى إلى مكة.
(٤١٦) أثوابه الخلقة.
(٤١٧) البالية.
(٤١٨) خبرهما.
(٤١٩) هو الذى يكتفى بأول الكلام عن آخره.
(٤٢٠) الفطن الذكى الظريف الحاد الذهن.
(٤٢١) عبسه.
(٤٢٢) المجن الترس وهو كناية عن إظهار الشر.
(٤٢٣) الإفحاش والتشاتم.

﴿ ٦٠٤ ﴾

مجلس الحكم* والإقدام(٤٢٤) على هذا الجرم(٤٢٥)* حتى تراقيتما(٤٢٦) فى فحش المقاذعة(٤٢٧)* إلى خبث المخادعة* وآيم الله لقد أخطأت استكما الحفرة(٤٢٨)* ولم يصب سهمكما الثغرة(٤٢٩)* فإن أمير المؤمنين* أعز الله ببقائه الدين* نصبنى لأقضى بين الخصماء* لا لأقضى دين الغرماء(٤٣٠)* ووحق نعمته التى أحلتنى هذا المحل* وملكتنى العقد والحل(٤٣١)* لئن لم توضحا(٤٣٢) لى جلية(٤٣٣) خطبكما(٤٣٤)* وخبيئة خبكما(٤٣٥)* لا نددن بكما(٤٣٦) فى الأمصار(٤٣٧)* ولأجعلنكما عبرة لأولى الأبصار* فأطرق أبو زيد إطراق الشجاع(٤٣٨)* ثم قال له سماع سماع(٤٣٩) أنا السروجى وهذى عرسى(٤٤٠)* وليس كفؤ البدر غير الشمس وما تنافى(٤٤١) أنسها وأنسى* ولا تناءى ديرها

---

(٤٢٤) التجرى.
(٤٢٥) الذنب.
(٤٢٦) تعاليتما وتطاولتما.
(٤٢٧) المشاتمة.
(٤٢٨) هذا مثل يضرب لمن يخطئ فى مقصده ويروى ان المختارين بن أبى عبيد قال وهو بالكوفة لأدخلن البصرة ولأرمى دونها بنشاب ثم لأملكن السند والهند فلما بلغ هذا القول الحجاج قال أخطأت استه الحفرة أنا والله صاحب ذلك.
(٤٢٩) هى النقرة التى فى الرقبة وهى النحر.
(٤٣٠) جمع غريم وهو من عليه الدين ومن له الدين معاً.
(٤٣١) الأمر والنهى.
(٤٣٢) تبينا.
(٤٣٣) حقيقة.
(٤٣٤) أمركما.
(٤٣٥) أى ما أخفيتما من خداعكما.
(٤٣٦) لأشهرن ذكركما بما فعلتما من المكر والخبث.
(٤٣٧) المدائن.
(٤٣٨) الحية.
(٤٣٩) اسم فعل بمعنى اسمع اسمع.
(٤٤٠) زوجتى.
(٤٤١) تباعد واختلف.

﴿ ٦٠٥ ﴾

عن قسى[٤٤٢] ولا عدت[٤٤٣] سقياى[٤٤٤] أرض غرسى[٤٤٥]* لكننا منذ ليال خمس نصبح فى ثوب الطوى[٤٤٦] ونمسى* لا نعرف المضغ ولا التحسى[٤٤٧] حتى كأنا لخفوت النفس[٤٤٨]* أشباح[٤٤٩] موتى نشروا من رمس[٤٥٠] فحين عز الصبر[٤٥١] والتأسى[٤٥٢]* وشفنا[٤٥٣] الضر الأليم المس * قمنا لسعد الجد[٤٥٤] أو للنحس[٤٥٥]* هذا المقام لاجتلاب[٤٥٦] فلس[٤٥٧] والفقر يلجى الحر حين يرسى[٤٥٨]* إلى التجلى[٤٥٩] فى لباس اللبس[٤٦٠] فهذه حالى وهذا درسى* فانظر إلى يومى وسل عن أمسى وأمر بجبرى[٤٦١] إن تشأو حبسى*

---

(٤٤٢) بعد. الدير موضع عبادة النصارى وكنى به عن فرجها والقس والقسيس رئيس النصارى فى الدين والعلم وكنى به عن ذكره.

(٤٤٣) تجاوزت.

(٤٤٤) يقال أسقيته إذا جعلت له سقيا.

(٤٤٥) يعنى محل الولد.

(٤٤٦) الجوع.

(٤٤٧) الأكل والشرب وقيل أراد بالمضغ والتحسى أكل الخبز واللحم وحسو المرق وقيل المضغ فى الرخاء والتحسى فى الجذب كاستعمالهم السخينة وغيرها.

(٤٤٨) ضعفها من شدة الجوع.

(٤٤٩) أجساد.

(٤٥٠) أى خرجوا من قبر.

(٤٥١) قل.

(٤٥٢) الاقتداء بالغير فى التصبر أو أن يرى ذو البلاء مثله فيكون قد ساوراه فيه فيسكن ذلك من وجده ومنه قول الخنساء* أعزى النفس عنه بالتأسى*.

(٤٥٣) أوجعنا.

(٤٥٤) الحظ والبخت.

(٤٥٥) أى للخيبة والحرمان.

(٤٥٦) أى لجلب.

(٤٥٧) واحد الفلوس.

(٤٥٨) حين يثبت ويقيم.

(٤٥٩) بالجيم التكشف والظهور أو بالحاء فهما نسختان.

(٤٦٠) ثياب التخليط.

(٤٦١) بإصلاحى أو بالعطاء الذى أسير به مجبور الخاطر.

﴿ ٦٠٦ ﴾

ففى يديك صحتى[٤٦٢] ونكسى[٤٦٣] فقال له القاضى ليثب[٤٦٤] أنسك[٤٦٥]* ولتطب نفسك* فقد حق لك أن تغفر خطيتك* وتوفر عطيتك[٤٦٦]* فثارت[٤٦٧] الزوجة عند ذلك واستطالت[٤٦٨]*.

وأشارت إلى الحاضرين وقالت:

يا أهل تبريز لكم حاكم* أوفى على الحكام[٤٦٩] تبريزا[٤٧٠] ما فيه من عيبٍ سوى أنه* يوم الندى قسمته ضيزى[٤٧١] قصدته والشيخ نبغى جنى[٤٧٢]عودٍ له ما زال مهزوزا[٤٧٣] فسرح الشيخ[٤٧٤] وقد نال من جدواه تخصيصاً وتمييزا[٤٧٥] وردنى أخيب من شائم[٤٧٦] برقاً خفاً[٤٧٧] فى شهر تموزا[٤٧٨] كأنه لم يدر أنى التى لقنت ذا الشيخ الأراجيزا[٤٧٩] وأننى إن شئت غادرته[٤٨٠]

---

(٤٦٢) شفائى من المرض.
(٤٦٣) خيبتى والنكس معاودة المرض وأصله قلب الشئ على رأسه.
(٤٦٤) أى ليعد ويرجع.
(٤٦٥) أى ما تأنس به.
(٤٦٦) أى تكون وافرة كثيرة.
(٤٦٧) وثبت.
(٤٦٨) أى أشرفت عليهم.
(٤٦٩) ظهوراً وسبقاً.
(٤٧٠) أى جائزة وهى فعلى من ضازه حقه يضيره اذا بخسه ونقصه وإنما كسروا الفاء لتسلم الياء كما فى بيض وغيره.
(٤٧١) أى نطلب ثمر شجر.
(٤٧٢) مقصوداً يقصده كل أحد ويهزه لينال من ثمره.
(٤٧٣) أرضاه.
(٤٧٤) عطيته.
(٤٧٥) تشريفاً.
(٤٧٦) ناظر.
(٤٧٧) لمع لمعاناً خفياً.
(٤٧٨) هو شهر من أشد الشهور الرومية حراً.
(٤٧٩) جمع أرجوزة وهى أبيات القصيدة من بحر الرجز.
(٤٨٠) تركته.

﴿٦٠٧﴾

أضحوكة[٤٨١] في أهل تبريزا قال فلما رأى القاضي اجتراء جنانهما[٤٨٢]* وانصلات لسانهما[٤٨٣]* علم أنه قد منى[٤٨٤] منهما بالداء العياء[٤٨٥]* والداهية الدهياء[٤٨٦]* وأنه متى منح[٤٨٧] أحد الزوجين* وصرف الآخر صفر اليدين[٤٨٨]* كان كمن قضى الدين بالدين* أو صلى المغرب ركعتين* فطلسم* واخر نطم وبرطم* وهمهم وغمغم[٤٨٩]* ثم التفت يمنة وشامة[٤٩٠]* وتململ[٤٩١] كآبة[٤٩٢] وندامة[٤٩٣]* وأخذ يذم القضاء ومتاعبه* ويعدد شوائبه[٤٩٤] ونوائبه[٤٩٥]* ويفند طالبه[٤٩٦] وخاطبه[٤٩٧]* ثم تنفس كما يتنفس الحريب[٤٩٨]* وانتحب[٤٩٩] حتى كاد يفضحه النحيب* وقال إن هذا لشئ

---

(٤٨١) يضحك عليه أو يضحك منه.
(٤٨٢) قوة قلبهما.
(٤٨٣) خروج لسانهما لانه يقال اتصلت السيف من غمده إذا انسل منه.
(٤٨٤) ابتلى.
(٤٨٥) الذى لا برء له أى الذى أعيا الأطباء كالعضال.
(٤٨٦) أى المصيبة العظمى الشديدة الدهاء كما يقال ليلة ليلاء أى شديدة الظلمة.
(٤٨٧) أعطى.
(٤٨٨) أى من غير عطاء.
(٤٨٩) هذه الكلمات الست سيأتى تفسيرها بعد تمام هذه المقامة.
(٤٩٠) أى يميناً وشمالاً أو جهة اليمين وجهة الشمال.
(٤٩١) اضطرب.
(٤٩٢) حزناً.
(٤٩٣) حسرة.
(٤٩٤) ما يخالطه من الأكدار والأقذار.
(٤٩٥) مصائبه.
(٤٩٦) يلومه أو ينسبه إلى الفند وهو ضعف الرأى.
(٤٩٧) أى قاصده.
(٤٩٨) المحروب الذى سلب ماله بالحرب.
(٤٩٩) بكى بصوت.

﴿٦٠٨﴾

عجيب[٥١٥]* أأرشق[٥١٦] فى موقف بسهمين* أألزم فى قضية بمغرمين[٥١٧]* أأطيق أن أرضى الخصمين* ومن أين ومن أين* ثم عطف[٥١٨] إلى حاجبه[٥١٩]* المنفذ لمآربه[٥٢٠]* وقال ما هذا يوم حكم وقضاء* وفصلٌ وإمضاء[٥٢١]* هذا يوم الإعتمام* هذا يوم الاغترام[٥٢٢]* هذا يوم البحُران[٥٢٣]* هذا يوم الخسران[٥٢٤]* هذا يوم عصيب[٥٢٥]* هذا يوم نصاب فيه[٥٢٦] ولا نصيب[٥٢٧]* فأرحنى من هذين المهذارين[٥٢٨]* واقطع لسانهما[٥٢٩] بدينارين*ثم فرق الأصحاب* وأغلق الباب* وأشع[٥٣٠] أنه يوم مذموم* وأن القاضى فيه مهموم* لئلا يحضرنى خصوم* فأمّن الحاجب على دعائه* وتباكى لبكائه* ثم نقد أبا زيدٍ وعرسه المتقالين* وقال أشهد أنكما

---

(٥١٥) يتعجب منه.
(٥١٦) أأرمى.
(٥١٧) غرامتين.
(٥١٨) مال والتفت.
(٥١٩) أى الذى يمنع من يدخل عليه بغير اذن.
(٥٢٠) أى حوائجه.
(٥٢١) تنفيذ حكم.
(٥٢٢) دفع الغرامة.
(٥٢٣) هو اليوم الذى يحدث فيه التغير للمريض دفعة فى الأمراض الحادة يسميه الأطباء يوم بحران بالإضافة وهو مولد.
(٥٢٤) الخسارة.
(٥٢٥) شديد.
(٥٢٦) يؤخذ منا.
(٥٢٧) أى ولا نأخذ شيئا.
(٥٢٨) أى الكثيرى الكلام بغير فائدة.
(٥٢٩) أى أرضهما حتى يسكتا.
(٥٣٠) أعلم وأظهر.

﴿ ٦٠٩ ﴾

لأحيل الثقلين(٥٣١)* لكن احترما مجالس الحكام* واجتنبا فيها فحش الكلام* فما كل قاضٍ تبريز* ولا كل وقتٍ تسمع الأراجيز* فقالا له مثلك من حجب(٥٣٢)* وشكرك قد وجب(٥٣٣)* ونهضا وقد حظيا بدينارين* وأصليا(٥٣٤) قلب القاضى نارين(٥٣٥).

فى هذه المقامة التبريزية، أو لنقل فى هذه الحوارية المسرحية تطالعنا سائر العناصر الفنية والمقومات اللازمة للبناء المسرحى بالمفهوم النقدى الحديث متمثلاً فى الحوار والشخصيات والصراع والأزمة أو المشكلة وما يمكن أن يكون انفراجاً أو حلاً مناسباً متمشياً مع الغاية والهدف.

والشخصيات فى هذه المقامة متعددة النوعية واضحة المعالم محدودة الإطار، تؤدى كل منها دورها بمعيار، ويدور على ألسنتها الحوار، وينمو الصراع، ويتأزم الموقف، ويطرد سير الأحداث ... هناك شخصية البطل "أبى زيد السروجى" الذى يمثل دور الزوج الناقم على زوجته، المغتم بصحبتها، المستاء من سوء عشرتها، إذ هى أبية القياد، كثيرة الشراد، مع أنه أطوع لها من بنائها، وأحنى عليها من جنانها ... وهناك الزوجة المشحونة من زوجها غضباً، النافرة منه سلوكاً وانحرافاً، المتقززة من أفعاله، المتألمة من سوء مقاله، الرافضة له بكل اعتبار، ولو أوتى مقاليد الحكم والسلطان، وتربع

---

(٥٣١)الاحيل من الحيل بمعنى الحول والحيلة و القوة وقال الفراء هو أحيل منك وأحول أى أكثر حيلة وما أحيله لغة فى أحوله والثقلين الإنس والجن.

(٥٣٢) أى من كان مثلك فى الصفات هو الذى يستحق أن يكون حاجباً.

(٥٣٣) لما فعلته معنا من المعروف.

(٥٣٤) أحرقا.

(٥٣٥) بتغريمه دينار لكل منهما وفى نسخة (بنارين) بزيادة الباء.

﴿ ٦١٠ ﴾

على عرش الفصاحة والبيان، واستوى على قمة الشاعرية فى أعلى مكـان ... "وهبك الحسن فى وعظـه ولفظـه، والشـعبى فـى علمـه وحفظـه، والخليـل فـى عروضه ونحوه، وجريرا فى غزله ولفظه، وقسافى فصاحته وخطابتـه... الـخ أأتظننى أرضـاك إماماً لمحرابى؟! وهناك القاضى الحائر، الناقم الساخط على القضاء ومتاعبه المكتوى بشـوائبه ونوائبـه، والمبتلـى بأسـوأ خصمين وأخبث متقاضيين ... وهناك الحاجب المؤتمر بـأمر سيده، الحريص علـى إرضائـه، والتأمين على دعائه، والتباكى لبكائه، والابتئاس لاستيائه، والمبادر إلـى تنفيذ رغائبه، وإجابة مطالبه...

أما الحوار فإنه شائق مثير يتسم بالحيوية وخفة الروح وصدق التعبير عن الشخصية وملاءمته لها، وكشـفه عـن نوعيتهـا ونمطهـا، وتمثيلـه لاحتدام الصراع بين طرفين يحاول كل منهما النيل من خصمه، وكسب القاضى إلـى صفه، ولذلك كان بحق حواراً نامياً مطرداً اطراداً تناسبياً مع طبيعـة الموقـف، ونوعيـة الشـخصية، وتصويـر حـدة الانفعـال، واحتوائـه علـى الإشـارات والإيحاءات والرموز المعبرة عن أدق المعانى وأشـدها حرجاً وأقواها إثـارة، مع براعة الأداء، وحسن اختيـار الألفـاظ والعبـارات، بمـا يلائـم الشـخصيات، ويجارى الانفعالات .. تأمل قول أبى زيد لزوجته أمام القاضى: "علـى أنـه لـو حبتك "شـرين" بجمالهـا، لأنفـت أن تكـون قعيـدة رحلـى، وطروقـة فحلـى ثم لنصغ إلى إيقاع الثورة المحتدمة، والهجمـة المرتدة، فـى رد الزوجـة علـى زوجها ... " أتظننى أرضـاك إماماً لمحرابـى، وحسـاماً لقرابـى، لا واللـه ولا بوابا لبابى، ولا عصا لجرابى". إننـا لا نغفل عـن هـذه الرمـوز الأنثويـة فـى: المحـراب، والقـراب، والبـاب، والجـراب مـع مـا يقابلهـا مـن: إمـام، وحسـام،

﴿٦١١﴾

وبواب، وعصا ... والصراع عنصر أساسى فى الفن القصصى والمسرحى وبغير هذا الصراع لن تكون هناك قصة أو مسرحية وإذا كانت القصة والمسرحية تعبيراً عن الحياة بظروفها وأحداثها ومشكلاتها، وتهافت الناس عليها، ووقوع الصدام بينهم بسببها لاختلاف طبائعهم ونزعاتهم، ومبادئهم وغاياتهم، أقول: إذا كانت القصة والمسرحية تعبيراً عن الحياة بهذه الصورة فإن هذه الحياة بغير شك مثقلة بأحمال عاتية من أزمات ومشكلات وعقد وعقبات، وأحداث جسام، وصراع مرير بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان وبيئته وعصره وما يكتنفه من ظروف ومآس وكربات ومفارقات ومتناقضات ومضحكات أو مبكيات ... تلك طبيعة الحياة وسنتها دائماً أبداً ولن تجد لسنة الله فى خلقه تبديلاً ...

والصراع فى هذه المقامة ماثل بكل مظاهره وأنماطه فهو صراع مع البيئة والظروف والأحداث، وصراع مع النفس فى مواجهة هذه الظروف والأزمات، وما تسببه من اختلال وتقلبات، وصراع مع الغير قد يؤدى إلى شر أو خير لكنه صراع على أى حال. ومعلوم أن هذا الصراع بأنواعه وأنماطه يتداخل ويتلاقى ويتشابك ليؤدى فى النهاية إلى أزمة أو عقدة أو مشكلة تستدعى بدورها حلاً وانفراجاً أو قد تظل بغير حل وانفراج إشارة إلى عنف الأزمة وشدة تعقيدها ... ومع أن المشكلة هنا أو الأزمة مصطنعة أساساً للاحتيال من أجل الحصول على مال إلا أنها عرضت باعتبارها أزمة أو مشكلة وصل الأمر بها إلى ساحة القضاء ولم يكشف النقاب عن الحقيقة إلا فى نهاية المطاف حين أصر القاضى على معرفة جلية الأمر: "ووحق نعمته التى أحلتنى هذا المحل، وملكتنى العقد والحل، لئن لم توضحا لى جلية

﴿٦١٢﴾

خطبكما، وخبيئة خبكما، لأنددن بكما فى الأمصار، ولأجعلنكما عبرة لأولى الأبصار".

وقد جاءت المصارحة بعد المطارحة واعترف أبو زيد السروجى بالدافع الحقيقى للتخفى والتنكر وافتعال الشجار وعنف الحوار ... إنها الحاجة والفقر ومرارة الحرمان ...

فحين عز الصبر والتأسّى ... وشفنا الضر الأليم المس
قمنا لسعد الجد أو للنحس ... هذا المقام لاجتلاب فلس
والفقر يلجى الحر حين يرسى ... إلى التجلى فى لباس اللبس
فهذه حالى وهذا درسى ... فانظر إلى يومى وسل عن أمسى
وأمر بجبرى إن تشأ أو حبسى ... ففى يديك صحتى ونكسى

وهنا يقرر القاضى الإحسان إليهما بدينارين وهو لا يكاد يصدق أنه خرج من هذا الصراع النفسى الهائل والحيرة البالغة التى أوقعاه فيها من قبل الكشف عن حقيقتهما ومن بعده وأيا ما كان الأمر فقد قرر القاضى اعتزال الناس والاحتجاب عن منصة القضاء بقية هذا اليوم العصيب:

"ما هذا يوم حكم وقضاء، وفصل وإمضاء، ... هذا يوم الخسران هذا يوم عصيب، هذا يوم نصاب فيه ولا نصيب، فأرحنى من هذين المهذارين، واقطع لسانهما بدينارين، ثم فرق الأصحاب وأغلق الباب، وأشع أنه يوم مذموم، وأن القاضى فيه مهموم، لئلا يحضرنى خصوم ...".

هكذا كان بمقدور الحريرى صياغة مثل هذه المقامة من المقامات التى تتجلى فيها مقومات الفن القصصى أو المسرحى بكل سماته وخصائصه

وأصوله وعناصره... وليس ذلك تمحلا أو ادعاء، أو لأدنى ملابسة - كما يقولون - بل إنها الدراسة التحليلية النقدية الواعية التى تؤكد ذلك بكل المقاييس...

* نموذج من مقامته السنجارية يصف قينة تكاملت فيها الأوصاف: "كانت عندى جارية، لا يوجد لها فى الجمال مجارية، إن سفرت خجل النيران، وصليت القلوب بالنيران، وإن بسمت أزرت بالجمان، وبيع المرجان بالمجان، وإن رنت هيجت البلابل وحققت سحر بابل، وإن نطقت عقلت لب العاقل، واستنزلت العصم من المعاقل، وإن قرأت شفت المفئود، وأحيت الموءود، وخلتها أوتيت من مزامير آل داود، وإن غنت ظل معبد لها عبداً، وقيل سحقا لإسحاق وبعدا، وإن زمرت أضحى زنام عندها زنيماً، بعد أن كان لجيله زعيماً، وبالإطراب زعيماً، وإن رقصت أمالت العمائم عن الرءوس، وأنستك رقص الحبب فى الكئوس، فكنت أزدرى معها حمر النعم، وأحلى بتمليها جيد النعم وأحجب مرآها عن الشمس والقمر، وأذود ذكراها عن شرائع السمر، وأنا من ذلك أليح من أن تسرى برياها ريح أو يكهن بها سطيح، أو ينم عليها برق مليح....".

* ومن مقامته الواسطية خطبة فى الزواج عاطلة من النقط تمضى على هذه الشاكلة:

"الحمد لله الملك المحمود، المالك الودود، مصور كل مولود، ومآل كل مطرود، ساطح المهاد، وموطد الأطواد، ومرسل الأمطار، ومسهل الأوطار، عالم الأسرار ومدركها ومدمر الأملاك ومهلكها، طاوع السؤل

﴿٦١٤﴾

والأمل، وأوسع المرمل والأرمل، أحمده حمداً ممدوداً مداه، وهو الله لا إله للأمم سواه، ولا صادع لما عدله وسواه، أرسل محمداً علماً للإسلام. وإماماً للحكام ...

- ومن مقامته الشعرية أبيات التزم فى داخلها قافية غير القافية الخارجية يقول فيها:

يـــا خـــاطب الدنيـــا إنهـــا شـرك الـردى وقـرارة الأكـدار
دار متـى مـا أضحكت فـى يومهـا أبكـت غـداً بعـداً لهـا مـن دار
غاراتهـا مـــا تنقضـــى وأسـيرها لا يفتـــدى بجلائـــل الأخطـــار

إذ يمكن أن تنشد الأبيان على هذا النمط:

يـــا خـــاطب الدنيـــا الدنيـــ ـــة إنهـــا شـــرك الـــردى
دار متـــى مـــا أضحكـــت فـــى يومهـــا أبكـــت غـــداً
غاراتهـــا مـــا تنقضـــى وأســـيرها لا يفتـــدى

- ومن مقامته الطيبية التى ملأها بالألغاز الفقهية على هيئة أسئلة موجهة من أحد الفتيان إلى أبى زيد السروجى وأجوبته عليها وهى تمضى على هذا النحو:

- ما تقول فيمن توضأ، ثم لمس ظهر نعله؟

- انتقض وضوءه بفعله (النعل هنا بمعنى الزوجة)

- ما تقول فيمن صلى وعانته بارزة؟

- صلاته جائزة (العانة هنا: الجماعة من حمر الوحش)

﴿٦١٥﴾

- أيجوز للمعذور أن يفطر فى رمضان؟

- ما رخص فيه إلا للصبيان. (المعذور: المختون)

- أيجوز للحاج أن يعتمر؟

- لا، ولا أن يختمر. (الاعتمار: لبس العمارة وهى العمامة والاختمار لبس الخمار)

- ما تقول فى ميتة الكافر؟

- هى حل للمقيم والمسافر. (الكافر هنا البحر وميتته السمك الطافى فوق مائه)

- ما تقول فى التهود؟

- هو مفتاح التزهد. (التهود بمعنى التوبة ومنه قوله تعالى: إنا هدنا إليك).

الفصل الخامس

" موازنة بين مقامات بديع الزمان ومقامات الحريري "

بديع الزمان الهمذانى هو رائد فن "المقامات" فهو الذى سواها وأبدعها على هذا المثال، ونسجها على هذا المنوال. وأطلق عليها هذا الاسم والشعار، وسار على هديه الحريرى من بعده مترسما خطاه، ومقتفيا أثره، معترفا له بالسبق والفضل إذ أنه فى رأيه "سباق غايات، وصاحب آيات" وأنه يتلو فى مقاماته تلو البديع باعتباره سباقا مبدعا، ورائدا متقدما وأصالته فى هذا الفن ليست مجال جدال، وآثاره. فيمن جاء بعده ثابتة على أى حال، وأوجه التشابه قائمة بكل اعتبار ... فالحريرى يختار لعمله الفنى اسم "المقامات" وذلك يعنى وحدة الخصائص والسمات بين مقاماته ومقامات بديع الزمان وهو يصوغها خمسين مقامة فى مقابل ما سلم من مقامات البديع خمسين أو تزيد قليلا، وأغلب مقاماته منسوبة فى أسمائها إلى بلاد وديار كمقامات بديع الزمان بل إن هناك سبع مقامات للحريرى تحمل نفس الأسماء فى مقامات البديع وأعنى بها: الكوفية، والبغدادية، والدينارية، والساسانية، والبصرية والشيرازية، والشعرية ... وفى مقامات الحريرى راوية وبطل هما الحارث بن همام وأبو زيد السروجى يقابلهما عند البديع عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندرى، والموضوعات التى بنى عليها الحريرى مقاماته لا تختلف عن تلك التى اختارها البديع وشغل بها بطله من نقد وحوار أدبى وعظات بالغات وجدل وحجاج ومعاياة وإلغاز وما يتبع ذلك من وصف الأشخاص والمواضع وإخراج البطل فى صور مختلفة من صور الساسانيين الذين انتشروا فى تلك الأزمان واحتالوا على التكدية والاستجداء بضروب الحيل وفنون المكر والدهاء. ولقد تزيد الحريرى على البديع فى باب الإلغاز بما اقتبسه عن ابن فارس من المعاياة بالمسائل الفقهية. والمحاجاة أو الإلغاز والمعاياة لم تكن فى

﴿٦١٨﴾

عموم معناها من مبتكرات الحريرى فقد سبقه بها البديع، وإنما الذى كان له فيها من التجديد هو الالتفات إلى نوع من جنسها أخذه عن ابن فارس واستكثر منه وأغرب فيه، كذلك زاد الحريرى من التلاعب بالصناعات اللفظية التى غالى فيها وتمادى كإنشاء رسالة تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه، أو رسالة، تقرأ رداً وطرداً فلا يحيلها الانعكاس أو رسالة تتكون من كلمات معجمة فمهملة على التوالى من أولها إلى آخرها أو رسالة يراعى فى تأليفها تتابع الإهمال والإعجام بين الحروف من غير إخلاف إلى أشباه ذلك مما أشبعت فيه القول مؤيداً بالشواهد والأمثلة ... وهذه البراعة فى مثل هذه الأساليب قد سبقه البديع بما يماثلها مما حدا بالخوارزمى أن يطلق عليها لفظ "شعبذة"... والجديد للحريرى أنه شرع من ذلك أبواباً لم تكن من قبله وأعيابها من جاء بعده يقول ابن الأثير: "قد سلك قوم فى منثور الكلام ومنظومة طرقاً خارجة عن موضوع علم البيان وهى بنجوة عنه لأنها فى واد وعلم البيان فى واد، فممن فعل ذلك الحريرى صاحب المقامات فإنه ذكر تلك الرسالة التى هى كلمة معجمة وكلمة مهملة، والرسالة التى حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم، ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول للبيت الذى يليه وكل هذا وإن تضمن مشقة من الصناعة فإنه خارج عن أسباب الفصاحة والبلاغة ... وهذا الكلام المصوغ بما أتى به الحريرى فى رسائله وأورده ذلك الشاعر فى شعره لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة وإنما يأتى ومعانيه غثة باردة وسبب ذلك أنها تستكره استكراها وتوضع فى غير مواضعها وكذلك ألفاظه فإنها تجئ مكرهة أيضاً غير ملائمة لأخواتها ... وفى سبيل تحقيق هذه الأساليب التى كان يترصد لها الحريرى امتلأت مقاماته بغريب الألفاظ وأحوجت إلى تقليب المعاجم والتنقيب فى كتب الغريب ومقامات البديع من هذه

الوجهة أكثر انطباعاً وأشد انسجاماً وأبعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة...

والحريرى أكثر من بديع الزمان إيراداً للحكمة والمثل واقتباساً لآى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ولذلك كانت مقاماته أبدع فنوناً وأبرع خيالاً وألطف فكاهة وأغزر مادة وأمتع ثقافة وأعم فائدة مما جذب إليها طلاب العلم وأعلام الأدب وهواة عجائب الأساليب.

ولعل ما يلاحظ فى مقامات الحريرى تلك الكنايات التى تحيل كثيراً من جوانب مقاماته إلى ما يشبه الألغاز نلمس ذلك بوضوح فى المقامة التاسعة عشرة الملقبة بالمقامة النصيبية إذ يكثر من الكنايات فيها على نحو مفرط فى الإغراب لم يعهد من قبله ...

والتزاماً بهذه الطريقة، وحرصاً على هذا النهج أصبح الحريرى يعتمد على أشياء لم تكن مألوفة عند السابقين، وإذا به يسلك فى مقاماته مسائل النحو والفقه تماماً كما يسلك فيها الكنايات والأمثال تحقيقاً لإظهار البراعة وعرض المقدرة، ولا يتوقف عند هذا الحد بل نراه يعمد إلى الفتاوى اللغوية من ذكر بعض الاشتقاقات والأبنية الغريبة مما حدا بابن خلكان أن يقول إنها اشتملت على كثير من كلام العرب من لغاتها(٥٣٦) ... ومما جعل الشريشى شارح مقاماته يجأر بالشكوى فى مقدمته من تكلف هذا الجانب فيها وصعوبته...

(٥٣٦) وفيات الأعيان حـ١ ص ٤١٩.

﴿ ٦٢٠ ﴾

ومقامات بديع الزمان كلها نثرية، وحظ الشعر فيها قليل بل إن من المقامات مالا مكان للشعر فيه إطلاقاً مثل المقامة الثانية والعشرين (المضيرية) والثالثة والثلاثين (الشيرازية) والثالثة والأربعين (الصيمرية) والرابعة والأربعين (الدينارية) لكنه كان يميل إلى السجع ويلتزم به فى الأعم الأغلب ولا يغرق أساليبه فى سائر الفنون البديعية الأخرى وكان اكتفاؤه بالسجع الخفيف الرشيق يحقق لأسلوبه موسيقاه التى تجعله من قبيل الشعر المنثور(٥٣٧). ومعلوم أن السجع لا يكون مذموماً إلا إذا أدى إلى التضحية بالمعنى أو التعبير السليم فى سبيل أسجاع ملفقة أو فواصل مغتصبة(٥٣٨).

وعلى الجانب الآخر نرى الحريرى صاحب اقتدار بالغ على الشعر يصول فيه ويجول ويجعل من مقاماته ميداناً رحباً فسيحاً لإظهار موهبته الشعرية كما أظهر براعة نادرة فى نثره الذى التزم به بسائر الفنون البديعية، وأوغل إيغالاً بعيداً كما سبق أن ذكرت، وكأنه بذلك يشهد الناس فى عصره ومن بعد عصره على أنه صاحب القدم الراسخة، والهامة الشامخة، و القدرة الفذة، والهمة النشطة فى الشعر والنثر على السواء ...

كذلك مما نلحظه على الحريرى فى مقاماته تفتح ذهنه بالفكاهة وسريان روح الدعابة والسخرية فى جوانب مختلفة من مقاماته وبخاصة المقامة الثالثة عشرة "البغدادية" وفيها يبدو أبو زيد السروجى فى هيئة امرأة عجوز تجرر أطفالها وتستجدى لليتامى ناعية حظها، باكية أهلها وبعلها، كما تتجلى روح الفكاهة بقوة ووضوح فى مقامته الثلاثين "الصورية" وفيها يشهد

(٥٣٧) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٢٤٢.
(٥٣٨) العقاد: يوميات حـ ٢ ص ٣٥٩ ط ثانية ١٩٦٩ دار المعارف.

﴿٦٢١﴾

الحارث ابن همام عقد زواج لعروس من آل ساسان محترفى الكدية والاستجداء ويقوم بعقد العقد شيخهم المفضل أبو زيد السروجى ...

بيد أن بديع الزمان يتفوق على الحريرى فى روحه الفكاهى السارى فى كثير من مقاماته نابعاً من أعماقه بتلقائية وعفوية وخفة روح ومرح(٥٣٩) وقد نرى هذا الروح الفكاهى المرح سارياً فى بعض مقاماته من أولها إلى آخرها كمقامته "المضيرية" التى تعد من أطول مقاماته وأحفلها بالفكاهة والمرح وخفة الروح، وقل مثل ذلك فى مقامته الثلاثين "البغدادية" والرابعة والثلاثين "الحلوانية".

وقد تكون سمة المفارقة بين الرجلين فى هذه الخاصية الفكاهية متمثلة فى كونها عند الحريرى محكومة بالعقل الواعى لا الشعور العفوى وبالمنطق اللغوى الحاد الذى يفرض عليها قوالب خاصة نثرية أو شعرية(٥٤٠) وإذا كان للحريرى – كما كان لبديع الزمان – مقامات خاصة تتجلى فيها بوضوح واقتدار سمات الفن القصصى أو خصائص المسرحية الفنية ذات المستوى الرفيع فإن الحريرى يمضى فى هذا المجال بشكل متقدم وعلى مستوى عال من النضج الفنى والأسلوب الدرامى واكتمال العناصر وائتلاف الأنماط وعلى سبيل المثال فإن شخصية البطل عنده وهو أبو زيد السروجى شخصية مكتملة الخصائص والقدرات والمواهب فهو أوسع ثقافة وأسرع بديهة وأطول باعا وأوفى قدرة، وأقوى بيانا، وأشد إثارة وإبهاراً وأقدر على التصرف فى المواقف ومواجهة المشكلات واقتحام العقبات وتخطى الأزمات وتحقيق

(٥٣٩) شوقى ضيق: المقامة ص ٣٣.
(٥٤٠) جابر قميحة: التقليدية والدرامية ص ١٣٢.

﴿٦٢٢﴾

الانتصارات بحضوره الكامل الفعال فى سائر المقامات واستعانته بزوجته وولده لإحكام احتياله وحبك خديعته وتحقيق مآربه وهذا ما لا نجده فى شخصية أبى الفتح الإسكندرى عند بديع الزمان حضوراً واقتداراً وتصرفاً وافتتانا فى صنوف الاحتيال وتطرفاً فى استخدام أساليب المكر والدهاء كما هو الحال مع السروجى بطل مقامات الحريرى بل إننا نفاجأ برؤية أبى الفتح الإسكندرى مهزوماً مخدوعاً مغلوباً على أمره مع ما عرف عنه من مكر وختل واحتيال ويتضح ذلك بشكل مثير فى المقامة الثانية والعشرين (المضيرية) وفيها يقع أبو الفتح ضحية تاجر ثرثار دعاه إلى مضيرة (وهى نوع من اللحم المطبوخ باللبن المضير "الحامض" وحين صحبه إلى بيته ظل يقص عليه أموراً وأحداثاً ويحكى حكايا لا تنتهى ويسترسل فى أوصاف لا تنفذ ويخرج من موضوع إلى موضوع، وينتقل من حديث إلى حديث لأدنى مناسبة وأتفه صلة وصاحبنا يتحرق شوقاً إلى المضيرة ولكن هيهات فقد فتح عليه التاجر سيلاً مدراراً لم يتوقف ولو للحظة واحدة متناولاً كل ما تقع عليه عينه أو تأتى سيرته بالأوصاف والسمات وأخيراً وبعد أن مضت ساعات ونفد صبر الضيف خرج يعدو نحو الباب، مسرعاً فى الذهاب، وجعل يعدو والتاجر خلفه يتبعه ويصيح: يا أبا الفتح المضيرة، ويتم أبو الفتح حكايته ويقول: "وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى فصاحوا صياحه، فرميت أحدهم بحجر،- من فرط الضجر، فلقى رجل الحجر بعمامته، فغاص فى هامته، فأخذت من النعال بما قدم وحدث، ومن الصفع بما طاب وخبث، وحشرت إلى الحبس، فأقمت عامين فى ذلك النحس، فنذرت ألا آكل مضيرة ما عشت فهل أنا فى ذا يا آل همذان ظالم؟؟!!

كذلك فإن شخصية أبى زيد السروجى تتكرر فى مقامات مختلفة لتكشف عن جوانب نفسية مختلفة وهذا نوع من التحليل النفسى يقرب من النضج الفنى فى القصص فبطل المقامات الحريرية أبو زيد السروجى يفوق أبا الفتح الإسكندرى بطل المقامات البديعية فى جلاء جوانبه النفسية المختلفة(٥٤١)...

أما شخصية الراوية الحارث بن همام فى مقامات الحريرى فقد كانت شخصية سوية متكافئة الملامح والسمات متوازنة فى الأخلاق والصفات خالية من المساوئ والمتناقضات مهيأة للقيام بدور حيوى نشط وإسهام إيجابى فعال ومشاركة جادة فى تحريك الأحداث ومواجهة المواقف ...

وفى المقابل تطالعنا شخصية عيسى بن هشام راوية بديع الزمان فهو على سعة علمه وفيض أدبه وشدة ذكائه قد انحدرت إليه بعض خصال السوء التى اتصف بها أبو الفتح الإسكندرى فظهر فى بعض المقامات ماكراً محتالاً، أو متهما طريداً، أو متشرداً أفاقاً(٥٤٢). وهو بذلك يؤدى نفس الدور الذى يقوم به أبو الفتح الإسكندرى منفرداً به أو مشاركاً له.

ومن يتأمل مقامات الحريرى قد يرى أنه قام بتأليفها كعمل واحد متكامل مترابط، فهو يرتبها ويرقمها وينسق بينها، وفى المقامة الأولى "الصنعانية" يقوم بالتعريف بين الحارث بن همام وأبى زيد السروجى ... إنه يعرف راويته ببطله فى أول مقاماته ثم يتنقل به أديباً مستجدياً فى المقامات

(٥٤١) المدخل إلى النقد الأدبى الغنيمى هلال ص ٦٠٢.
(٥٤٢) انظر المقامات: الثانية عشرة البغدادية والحادية والعشرين الموصلية والفزارية والأسدية.

﴿ ٦٢٤ ﴾

التالية مرتحلاً من بلد إلى بلد فى صور مختلفة، وهيئات متعددة ... وهكذا حتى نصل إلى المقامة التاسعة والأربعين "الساسانية" فنرى الحريرى يعرض علينا بطله وقد بلغ من الكبر عتياً ويحرص على إحضار ابنه حيث يوصيه أن يقوم على حرفة الكدية من بعده، وكأن الحريرى بهذه المقامات يعدنا للإطلال على نهاية عمله واكتمال بنائه إذ يشرف البطل على الأيام الأخيرة من عمره ويودع حرفته ويوصى ابنه، ويلقى إليه بخلاصة خبرته، وينبهه إلى ما أصابه من حرفته وصنعته .. وفى المقامة الخمسين يعرض الحريرى بطله وهو يتوب إلى الله من صنعته نادماً على ما تقدم من ذنبه، ويعلن هذه التوبة إلى صديقه الحارث بن همام:

أستغفر الله من ذنوب	أفرطت فيهن واعتديت
كم خضت بحر الضلال جهلا	ورحت فى الغى واغتديت
وكم تناهيت فى التخطى	إلى الخطايا وما انتهيت
فليتنى كنت قبل هذا	نسيا ولم أجن ما جنيت
يا رب عفوا فأنت أهل	للعفو عنى وإن عصيت

ويغيب البطل عن راويته فلا يعود يراه ولا يزال يتتبع أخباره حتى يعلم أنه آب إلى بلده سروج ولبس الصوف وأم الصفوف، وصار بها الزاهد الموصوف، وبذلك لم يعد ذا المقامات، فقد أصبح ذا الكرامات، ويرحل الراوية إلى البطل فيجده قد خلق خلقاً جديداً، وصار شيئاً آخر خلاف ما كان يعرفه فقد أصبح من المتصوفة الذين أخلصوا العبادة لربهم وأسلموا أنفسهم لله، ويبكى البطل، ويبكى معه الحارث بن همام ويرحل عنه وهو يقول

﴿ ٦٢٥ ﴾

"هذا فراق بيني وبينك وكانت هذه نهاية المطاف(٥٤٣)...

وإذا كانت الكدية تمثل الموضوع الرئيسي في مقامات الهمذاني ومقامات الحريري، وإذا كانت هناك موضوعات فرعية أخرى مشتركة بينهما فإن هناك موضوعات انفرد بها بديع الزمان فيمقاماته ولم نعثر على مثيل لها أو شبيه بها في مقامات الحريري ... من هذه الموضوعات وصف اللصوص وحيلهم وأساليبهم في السلب والنهب والسطو على الأموال كما نرى في المقامة الحادية والثلاثين الرصافية ومنها الوصف التفصيلي الدقيق لألوان الطعام وصنوف الحلوى وطرق إعدادها وتقديمها كما في المقامة الخامسة والثلاثين النهيدية، ومنها مدح الأمراء والولاة كما في المقامة التاسعة والثلاثين الخلفية التي خصصها لمدح خلف بن أحمد أمير سجستان ومثلها المقامة الأربعون النيسابورية و المقامة السادسة والأربعون الملوكية ومن هذه الموضوعات التي انفرد بها الهمذاني كذلك النقد الصريح اللاذع الذي لا يعرف مداراة أو مجاملة أو حذراً أو احتراساً كنقده لبعض القضاة في عصره والكشف عن سوءاتهم وهتك أستارهم وفضح خباياهم كما في المقامة الأربعين النيسابورية ...

أما جاء من نقد القضاة في مقامات الحريري فقد جاء بطريقة غير مباشرة وبصورة تعوزها الصراحة والجرأة ونقده للأمراء والولاة كان يتسم بالحذر والاحتراس وبكثير من المجاملة والمداراة حفاظاً على ما يلقاه منهم من ود، وما يرجوه من صلة كذلك كانت لبديع الزمان مقامة اختصت بموضوع مثير انفرد به الهمذاني في مقامته الإبليسية التي تصور لقاءً عجيباً بين عيسى

(٥٤٣) المقامة ص ٥٢ وما بعدها.

ابن هشام والشيخ أبى مرة (إبليس) فى واد خصيب وأخذا يتناشدان الأشعار لقدامى الشعراء ويتضح فى نهاية الأمر أن أبا مرة شيطان الشاعر الأموى جرير بن عطية ويرى شوقى ضيف أن بديع الزمان هو الذى استغل أولا فكرة شياطين الشعراء واستخرج منها مقامته الإبليسية ثم خلفه ابن شهيد وأبو العلاء فى القرن الخامس الهجرى فألف كل منهما رحلة فيما وراء عالمنا: التوابع والزوابع لابن شهيد ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى(٥٤٤).

وكما قلت لم يكن للحريرى فى مقاماته مثيل أو شبيه لهذه الموضوعات التى انفرد بها الهمذانى واستقل بالتأليف فيها ... وكانت بأسمائها المتنوعة المنسوبة إلى أشخاص أو حيوان أو طعام أو شراب خير شاهد على موضوعيتها وتعدد نوعيتها بالإضافة إلى تلك الأسماء المنسوبة إلى بلادوجهات والتى يشاركه فيها الحريرى بل ويوسع دائرتها فى مقاماته بينما لا نعثر على مقامة واحدة من مقاماته تحمل اسماً من هذه الأسماء المنسوبة إلى أشخاص أو حيوان أو طعام أو شراب(٥٤٥).

لذلك فإننا لا نوافق على ما ذهب إليه بعض الباحثين(٥٤٦) من أن موضوع المقامات واحد عند الهمذانى والحريرى، وأن الخلاف بينهما إنما يتبدى فى الاستعمال اللفظى للكلمات فالهمذانى، أقل إغراقاً من الحريرى فى هذه البهرجة اللفظية وتلك الشعوذة الكلامية ... أقول إننا لا نوافق على هذا الكلام ولا نرى هذا الرأى لأنه كانت هناك موضوعات خاصة انفرد بها بديع الزمان ولم نجد لها مثيلاً أو شبيهاً فى مقامات الحريرى هذا مع اعترافنا

(٥٤٤) المقامة لشوقى ضيف ص ٣٠ وما بعدها.
(٥٤٥) التقليدية والدرامية ص ١٢٤.
(٥٤٦) محمد رشدى حسن أثر المقامة ص ٣٢.

بأوجه التشابه الكثيرة بين الرجلين فى مقاماتهما كما سبق أن بينت.

والمستشرق البارون سلفستر دى ساسى يقول فى مقدمة شرحه لمقامات الحريرى إن المقامات البديعية تفضل المقامات الحريرية(٥٤٧).

وبعض الباحثين يرجح ضعف مقامات الحريرى إذا قيست إلى مقامات الهمذانى لعدة عوامل أهمها أن البديع مبتكر ومبتدع والحريرى مقلد، وأن البديع نابغة استحق لقب (بديع الزمان) وهو لقب لم يمنح لأحد غيره من معاصريه أو ممن أتوا بعده فلم تكن للحريرى هذه الهمة الممتازة كما كانت عند بديع الزمان كذلك فإن الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه البديع هى التى هيأت له الجو لإنشاء مقاماته وإبداعها إبداعا(٥٤٨)... وما ذكروه من أدلة خاضع للمناقشة لا شك فى ذلك وقابل للدفع والرد بكل اعتبار لكننا نمضى فى الموازنة مسجلين النقاط لكل من القطبين العظيمين بالحق والعدل ليكون الحكم بعد ذلك منصفا وليكون التقدير صحيحا، وليكون الرأى سديداً ...

والحقيقة التى لا شك فيها ولا جدال حولها أن بديع الزمان ونابغة همذان كان رائداً مبدعاً لفن المقامات وكان بحق سباق غايات وصاحب آيات، وصانع موضوعات، ومنشئ لوحات قصصية ومشاهد حوارية، ومواقف فكاهية تألق بهاء وبهجة، وتزهى رشاقة وخفة، وتسمو بياناً وسحراً ..

والحريرى بدوره لم يكن مجرد متبع يحاكى ويقلد، بل كان مبتدعاً فى فنه وعرضه وتصويره وتعبيره وتنميقه وتحبيره وكان قمة شامخة باقتداره وتأنيه وحسن استعداده وبراعة خياله واكتمال أهبته، وعظمة موهبته وجميل

(٥٤٧) نقلاً عن تخليص الإبريز لرفاعة الطهطاوى ص ٦٦.
(٥٤٨) أثر المقامة ص ٣٤ وما بعدها.

﴿٦٢٨﴾

اصطباره على التدبيج والتحبير والتنميق والتزيين مما أعفاه وأغناه عن البتر والاقتضاب وشرود الوقائع والأحداث ونحو ذلك مما أخذ على بديع الزمان فى بعض مقاماته واحتسب من سيئاته ... بالإضافة إلى ما كان يمتاز به الحريرى من الحيوية والخفة، والتدفق والتفتح، والالتزام بالدقة والضبط والإحكام والاقتدار مما يشهد بتفوقه ونبوغه، وإجادته وإبداعه فى مواجهة رائد مبدع وعلم شامخ كبديع الزمان الهمذانى الذى أنشا المقامات وضمنها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين حتى كادت تذوب ظرفا وتقطر حسنا وكان بها سباق غايات، وصاحب آيات واستحق منها أن يلقب ببديع الزمان وأن يعتبر رائداً لفن القصة فى الأدب العربى(٥٤٩). يقول صاحب صبح الأعشى(٥٥٠):

"واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر وإمام الأدب البديع الهمذانى، فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه وهى فى غاية البلاغة وعلو الرتبة فى الصنعة، ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريرى فعمل مقاماته الخمسين المشهورة فجاءت نهاية فى الحسن وأتت على الجزء الوافر من الحظ وأقبل عليها الخاص والعام حتى أنست مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة ...".

ونحن وإن كنا نتفق مع صاحب صبح الأعشى فيما قاله أولا عن بديع الزمان ومقاماته ثم ما قاله بعد ذلك عن الحريرى ومقاماته إلا أننا نخالفه فى ادعائه أنها أنست الناس مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة .... إذ أن الحريرى نفسه قد اعترف بمكانة البديع ومنزلته وقال بصريح العبارة "البديع رحمه الله سباق غايات، وصاحب آيات، والمتصدى بعده لإنشاء مقامة، ولو

(٥٤٩) مصطفى الشكعة: بديع الزمان رائد القصة العربية ص ٢٧٩.
(٥٥٠) القلقشندى حـ ١٤ ص ١١٠.

﴿٦٢٩﴾

أوتى بلاغة قدامة لا يغترف إلا من فضالته ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته..." (٥٥١) ولا ينبغى أن يقال إن ذلك جاء على سبيل المجاملة لأن بديع الزمان لا يحكم على مثله من منطلق المجاملات لأنه فوق كل المجاملات ومكانته معلومة ومعروفة بكل الاعتبارات.

والحريرى أيضا كما كان يعرف قدر غيره كان يعرف قدر نفسه فنراه يقول فى تقديمه لمقاماته: "أنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة، وفطنة خامدة، وروية ناضبة، وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره إلى ما وشحتها من الآيات، ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية، والأحاجى النحوية، والفتاوى اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحبرة والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهية مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السروجى، وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصرى...".

بل إننا نراه يتحدث بتفوقه ويشير إليه ففى مقامته السابعة والأربعين "الحجرية" يقول على لسان أبى زيد السروجى:

إن يكن الإسكندرى قبلى فالطل قد يبدو أمام الوبل

والفضل للوابل لا للطل

فهو يقدم أبا زيد السروجى على أبى الفتح الإسكندرى بطل مقامات البديع وهذا يعنى أنه يقدم نفسه على بديع الزمن ثقة فيها وتقديرا لجهده وإحساساً برفعة مكانته وعلو قدره ...

(٥٥١) مقدمة مقامات الحريرى ص ٦.